سلسلة أبحاث جامعية يشرف على اصدارها الدكتور حامد طاهر

دراسات عربية وإسلامية

١٠

- موقف الفكر الاسلامى من الفلسفة اليونانية — أ. د. محمد شامه — ٥
- المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة — أ. د. حامد طاهر — ١٥
- فلسفة التاريخ الاسلامى — أ. د. عبد الحميد ابراهيم — ٢٥
- صعوبات أسلوبية فى كتاب سيبويه — أ. د. عبد الرحمن أيوب — ٣٥
- مظاهر معاصرة الجيلين لدى شيوخ شعراء الخليج — أ. د. أحمد درويش — ٥٥
- ملامح الشاعر بريشة القصاص — د. إخلاص فخرى — ٨١

يشترك فى اصـدار السلسلة

أ. د. محمد حماسة عبد اللطيف

أ. د. محمد عبد الهادى سراج

أ. د. أحمد درويش

د. رفعت الفرنوانى

د. سلوى ناظم

د. حسن البندارى

المراسلات : د. حامد طاهر ــ كلية دار العلوم جامعة القاهرة ــ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الجزء العاشر

تعودنا منذ الجزء الأول أن نفتتح هذا التقديم بحمد الله وشكره لعونه لنا على الاستمرار، ومواصلة هذا الجهد الذى نرجو أن يكون خالصاً لوجهه تعالى، وأن نخدم به الثقافة العربية والإسلامية على المستوى العلمى الذى يتمثل فى دراسات جادة يقوم بها أساتذة متخصصون من مختلف الجامعات المصرية، والعربية، والإسلامية.

ولنا مع صدور هذا الجزء ملاحظة هامة: وهى أن الدراسات المتعلقة بالجانب الإسلامى مازالت أقل من مثيلاتها المتعلقة بالجانب العربى (اللغوى والأدبى). وهذه الملاحظة، النابعة أساساً من تعاملنا المباشر مع المتخصصين فى مجال الدراسات الإسلامية، وخاصة الفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والحديث ـ تدق ناقوس الخطر للقائمين على الأقسام العلمية فى الجامعات، ومراكز البحث المناظرة لكى يدركوا أن المتميزين فى مجال الدراسات الإسلامية نادرون للغاية. وربما كان هذا أمراً عجيباً، لأنه يظهر فى الوقت الذى تمتلىء فيه المكتبات بمؤلفات دينية لاحصر لها. لكننا نقصد الدراسات الجادة ذات الطابع العلمى الموثق، والتى تأخذ صورة البحث أو المقال ذى الموضوع الواحد، والنتيجة المحددة.

أما الدراسات اللغوية والأدبية، فإننا مازلنا ندعو أصحابها إلى مزيد من ارتياد ميادين جديدة، وتجربة فروض جديدة، بالإضافة طبعاً إلى مايبذلونه حالياً من تصنيف ونقد المعرفة القديمة التى تراكمت بكثرة فى هذا الميدان.

إن الثقافة العربية والإسلامية لن تزدهر إلا إذا تعاونت كل فروعها بعضها مع بعض، وليس هذا فحسب، بل لابد من أن تراعى أيضا ماطرأ على العلوم التجريبية من تطور، وألا تغفل بعد ذلك كله مايجرى فى المجتمع المعاصر من حركة وتجديد مستمرين.

وبهذا يمكن أن يقال إن الباحثين الجامعيين يواكبون عصرهم، و يعملون على حل مشكلاته، و يسهمون فى تنويره.

والله ولى التوفيق

حامد طاهر

١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م

موقف الفكر الاسلامي من الفلسفة اليونانية

أ . د . محمد شامه *

أقرت المجتمعات الانسانية — على اختلاف مذاهبها السياسية والعقدية والاقتصادية — حق الملكية الخاصة ، رغم ما بينها من تفاوت فى تحديد مجال هذه الملكية ، اذ يسود فى كل بقاع الأرض مبدأ ، أن ما للإنسان من متاع وأموال لا يجوز لأحد اغتصابه ، فليس لانسان ، كائناً مَنْ كان ، أن يأخذ ما ليس له ، وإن ساعدته الظروف على أن يأخذ عنوة ، فإنه يظل فى دائرة عدم الشرعية ، فلا يقره قانون ، ولا يرضى به ضمير الجماعة الواعى ، المدرك للحدود الفاصلة بين حقوق الأفراد والجماعات ، بل ان التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يعطى الانطباع بأن هناك أمورا ، لا يملكها الإنسان ، ولا يجوز له — على الأقل فى رأى أحد الطرفين المتنازعين — الاستحواذ عليها ، أو الانفراد بمنفعتها دون الآخرين .

يسرى هذا المبدأ على كل ما يحيط بالانسان ، وتحرص كل المجتمعات المتحضرة — بل والبدائية فى غالب الاحيان — على تلقينه وتعليمه للأطفال ، بل وتذكير الكبار به بين الحين والآخر ، غير أن هناك مجالا واحدا تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها ، فلا يحرم منه انسان ، ولا يحول بينه وبين طالبه أحد ، بل ان صاحبه يحرص على أن يصل الى كل الناس ، بل يزداد سروره كلما رأى الجماعات البشرية تسعى للحصول عليه ، ذلكم **هو الانتاج العقلى ،** وهو ما تسطره أقلام العلماء والفلاسفة ، هو العلوم الانسانية بجميع فروعها ، فالعلم — كما قالوا — لا وطن له ، وصاحبه لا يحرص على احتكاره ، لأن من طبيعته الانتشار ، ومن لوازمه أن يصل إلى الناس ، فهو لا يخرج من منطقة الابداع فى الانسان — سواء كان ذلك فى صورة التعليم والتلقين الشفهى ، أو مسطورا بالقلم — الا بقصد توصيله للآخرين ، وانتفاعهم به وتصرفهم فيه تصرفا مطلقا ، فلا أحد يحرم عليه استعمال نتائجه فى جميع مجالات حياته ، وما نسمعه اليوم من تحريم

---

* — أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الاسلامية بكلية الشريعة — جامعة قطر .

نقل التكنولوجيا — وهى من نتاج العلم المشاع بين الناس جميعا — من وطنها إلى الأوطان الأخرى فلا يمثل القاعدة التى يجب أن يكون عليها وضع انتاج العقل البشرى ، من أنه يجب أن يكون فى متناول كل بنى الانسان ، لأن هذا الإجراء — وهو تحريم انتقالها — يمثل حَجَر عثرة فى سبيل تقدم الشعوب ، لجأ إليه أنانىّ لايحب الا بنى جلدته ، أو جبار يريد أن يسيطر بامتلاكه لهذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخرى ، ويحدد مصائرها ، او مستغل يميل الى أن يمتلك وحده مايدره هذا الجانب من اموال مضحيا فى سبيل ذلك بالقضية التى تهم البشرية جمعاء الا وهى العمل على تقدم كل المجتمعات الانسانية حتى لاتظل الفجوة بينها عميقة .

ورغم القيود التى وضعها أمثال هؤلاء الناس أمام انتشار الانتاج العلمى فان طبيعة وضعها فى حياة الأمم والشعوب سوف تتغلب على هذه القيود لأن الانتشار خاصية من خواص العلوم فلابد أن تكون الغلبة لها .

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتجاهات الفكرية ، فتقيم الحواجز بينها و بين انتشارها بين المواطنين ، وتتخذ من الاجراءات مايحول بين الناس و بين معرفة هذه الاتجاهات ، اما خوفا على عقيدتها ، أو حفاظا على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية فى بلدها ، لانها ترى أن هذه الأفكار ستقوض من سلطانها على نفوس الناس ، فذلك أيضا وضع غير طبيعى — خاصة فى عصرنا الحاضر ، حيث ذابت الحواجز الثقافية والاعلامية بسبب التقدم الهائل فى مجال الاتصالات اللاسلكية سواء كانت مسموعة أو مرئية — ينبغى تركه ، كى يعود الامر إلى وضعه الطبيعى و يأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقة السليم .

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المختلفة أمام الاسلام ، لم نجد فيه الا حثًّا على طلب العلم وتعليمه ، وتحذيرا من كتمان الحكمة والرأى الذى فيه نفع للناس ، ففى مجال طلب العلم يقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) و يقول : (اطلبوا العلم ولو بالصين) و يقول : (الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها) كما ينفى القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم فيقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب) (١) .

وفى مجال وجوب تعليم الآخرين حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من كتموا الحق ، لأن من يفعل ذلك يصيبه ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم فقال : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس مايشترون) (٢) .

---

١ — الزمر ٩ .

٢ — آل عمران ١٨٧ .

وقال : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون) (٣) .

هذا هو موقف الاسلام من قضية العلم والتعليم ، لا يحرم على المسلمين تعلم أفكار الآخرين ولو بعدت أوطانهم ، ويحذر من احتكار الانتاج العقلى ، لأن مبادئه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلأ مباحا لكل الناس .

أثر هذا الاتجاه على المسلمين ، فانطلقوا يغرفون من منابع العلم فى كل مكان ، لا يمنعهم جنسيته أو عقيدته ، فأخذوا من الفرس والاغريق وغيرهما من شعوب الأرض على اختلاف نزعاتهم وتعدد أفكارهم ، و يعنينا هنا أن نتحدث عن موقف الفكر الاسلامى من الفلسفة اليونانية .

بدأ الاتصال بين العرب والثقافة اليونانية قبل الاسلام ، اذ عندما أغلقت مدارس الفلسفة فى أثينا واضطهد الفلاسفة ، فر مجموعة منهم صوب الشرق حيث لعبوا دورا كبيرا فى ازدهار المدارس الفلسفية التى نشأت فيه ، وخلفت مدارس اليونان فى حمل الفلسفة اليونانية .

كان العرب قبل الاسلام على اتصال بتلك المدارس ، اذ قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية فى العراق وماحوله فاتصل بثقافتهم بعض المهتمين بالثقافة من العرب مثل الحارث بن كلدة ، ومن بعده ابنه النضر بن الحارث الذى يحكى عنه ابن اصيبعة فى كتابه « طبقات الاطباء » بأنه اطلع على الفلسفة وأجزاء الحكمة .

كذلك اثبتت الأبحاث الحديثة بصورة قاطعة ان مراكز البحث الفلسفى كانت منتشرة فى العالم القديم الذى فتحه المسلمون وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمى بعد الفتح الاسلامى ، بل استمر الاتصال بها فى ظل الدولة الاسلامية ، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من اعلم قريش بفنون العلوم ، وكان له كلام فى صنعه الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين ، متقنا لهما وله رسائل دالة على معرفته و براعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانوس ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداها ماجرى له مع مريانوس ، وصورة تعليمه منه ، والرموز التى أشار اليها .

و يقول ابن النديم : « ان خالدا عنى باخراج كتب القدماء فى الصنعة ، وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما ، وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، ولا ننسى ان المدارس الفلسفية فى انطاكيه وحران والرها ونصيبين استمرت فى تأدية عملها العلمى فى ظل الدولة الاسلامية ، كما لا ينسى احد مابذلته الدولة الاسلامية من جهود فى مجال ترجمة التراث

٣ــ البقرة ١٥٩ .

اليوناني ، بل لا ينبغي لأحد أن ينكره أو يتناساه ، لأنه عمل علمي لم يحدث مثله في تاريخ البشرية قاطبة .

من هذا نرى أن الثقافة اليونانية كانت محل عناية المسلمين في الأقطار المختلفة ، أخذوا منها وتعلموها ، حتى ممن لم يكن على دينهم ، بل انهم تعلموا منها مالم يوافق دينهم فيذكر ابن كثير ان علوم الاوائل ــ أى الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامي ــ نقلت في المائة الأولى . ثم يزيد هذا الكلام توضيحا ماينقله الينا الشيرازي في كتابه « الأسفار الأربعة » : ان المتكلمين الاوائل في عهد بني امية عرفوا الفلسفة اليونانية حين نقلت بعض كتبها اليهم ... ويقول ان هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التي عرفوها ، وجعلوها اساسا لفلسفتهم .

ويلاحظ الباحثون في كتابات المتكلمين الاوائل من امثال أبي الهذيل العلاف ، وهشام بن الحكم وغيرهما معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية وتناولا لمصطلحات فلسفية ، مما يدل على ان الاتصال بين المسلمين وبين الثقافة اليونانية كان قويا مؤثرا على الحياة العقلية في المجتمع الاسلامي .

فقد وجدت في ظل الدولة الاسلامية مدارس للفكر اليوناني كانت استمرارا لمدارس ماقبل الاسلام ، كما نجد في ظل الدولة الاسلامية حَمَلة للفلسفة كانوا خلفاء الاغريق ومن اتوا بعد الاغريق من الرومان والمصريين .

أصبحنا نجد بعد انتشار الاسلام دينا واحدا هو الاسلام بجوار فلسفة سياسية واحدة ، وأصبحنا نرى ايضا مجالس لتعليم الدين الاسلامي ، وللتتلمذ في فهم القرآن والسنة بجوار مجالس أخرى للعلم اليوناني والفلسفة اليونانية .

فما هي ياترى أسباب قبول الفكر الاسلامي للفلسفة اليونانية ؟

أهو الميل العقلي وحده لدى بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة ، أكان السبب في قبول هذا البعض للاراء الاغريقية في الالهيات لأنها وليدة العقل الانساني ؟

أم هناك شيء آخر وراء هذا الميل دفعهم الى قبولها ؟

اذ الرغبة العقلية لدى انسان ماتساعد فحسب على تناوله عملا عقليا ، وعلى النظر فيه ، وعدم طرحه بادىء ذي بدء ، ولكنها قد لاتكفي وحدها في تعليل قبوله لهذا العمل العقلي والحرص عليه ، أو التأثر به . فوجود هذه الرغبة سبب مهيىء فقط للقبول ، وقبول المسلمين نفسه للآراء الاغريقية حينئذ ليس لأن من قبلها منهم كان ذا ميل عقلي فحسب بل لأسباب أخرى أهمها : الدقة التي كان عليها المنطق الأرسطي وغيره من العلوم الرياضية ، وأثر هذه الدقة في نفوس

المسلمين العرب التى لم تألف قبل ترجمتها اسلوب الاقناع ، ولم تتعود الا سعة الخيال ومرو... وتموجه فى التصوير .

لكن غلوهم فى الاقتناع بهذه الدقة جرهم الى الاعتقاد فى عصمة العقل الاغريقى فى المجالات الاخرى ، فدافعوا عنه بكل الطرق ، وفى هذا يقول الغزالى . « وقد تولد عنها ــ أى العلوم الرياضية ــ ان من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ، ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم » .

كانت هذه الدقة أشبه باغراء العقل الاسلامى على الاقدام على قبوله للناحية الالهية والانسانية من الفلسفة الاغريقية . . وتناول ما فيها بالشرح والتوضيح ، ومحاولة التوفيق بينها ــ وخاصة فيا يتعلق بالالهيات ــ وبين العقيدة الاسلامية . وقد اشتهر بهذا العمل الفارابى حتى أطلق عليه : الموفق والشارح ، وكان متأثرا فى عمله هذا بمدرسة الاسكندرية ، اذ من المعروف أنه بعد أن نقلت الفلسفة من أثينا وروما إلى الاسكندرية انصب العمل الفلسفى فى الفترتين اللتين عاشت فيها الفلسفة فى مدينة الاسكندرية فى السبعة قرون الأولى بعد الميلاد على التوفيق والانتخاب ، وهو توفيق وانتخاب من مدارس فلسفية اغريقية ، وضم المنتخب بعضه الى بعض فى وحدة واحدة مع ملاءمة بينه وبين ديانة شعبية ، أو بينه وبين المسيحية .

وعندما نقل مركز الفلسفة من الاسكندرية الى انطاكية ، ثم الى بغداد كانت الفلسفة المنقولة عبارة عن مزيج :ــ

١ ــ من عدة مدارس اغريقية ، و بالأخص من مدرستى : أفلاطون ، وأرسطو .
٢ ــ ومن ديانة أخرى شرقية [كالزرادشتية والبوذية والبرهماتية .] ، أو مسيحية .

واذا قلنا ان طابع الفلسفة المنقولة كان مزيجا من الأفلاطونية والأرسطية والرواقية والتصوف الشرقى لم يكن ذلك القول غريبا فهى فى الواقع تمثل كل هذه المدارس ، وكل الإتجاهات الثقافية ما بين انسانية ، ودينية ، ووثنية .

وعندما وصلت الفلسفة عن طريق المدارس المسيحية فى الشرق الادنى الى المسلمين وصلت اليهم وهى تجمع كل هذه العناصر ، لكنها وصلت اليهم مغلفة بغلاف آخر . وصلت اليهم وقد علتها مسحة صوفية شرقية ، وفيها تأييد « بوحدة الأول » وبساطته ، ولهذا سربها المسلمون أول الامر وقدروا فيها « عصمة الحكمة » .

ومن أجل ذلك أيضا استبعدوا أن يكون للحكماء الاغريق مقصد يتعارض مع الاسلام طالما يقولون : « بالوحدة » فى العلة الأولى ، وطالما يرون الزهد طريقا لسعادة الانسان ، وان أعطى ظاهر عباراتهم ما يفيد هذا التعارض فى بعض الاحيان .

ولان المسلمين استبعدوا هذا القصد من الاغريق ، حاولوا ان يوفقوا بين أفلاطون وأرسطو عندما تبدو بينها معارضة ، كما حاولوا التوفيق بين فلسفتها من جهة ، والاسلام من جهة أخرى ، ان اعطى ظاهر النصوص فى الجانبين نوعا من التضارب بينها : والفارابى واحد من مشاهير الفلاسفة المسلمين الذين ظنوا شمول « الحكمة » فيا نقل اليهم من الفلسفة الاغريقية والذين اعتقدوا ان عظماء الحكماء من الاغريق يكاد يستحيل عليهم التضارب فيا يقولون ..وان حكمتهم يستحيل عليها أيضا : أن تختلف مع الاسلام . علما بأن مانقل اليهم ينطوى فى واقعه على التضارب ، فواقعه ذو ألوان عديدة كما بينا ذلك منذ قليل ، وهو ليس الا مغطى ببريق يخدع من لم يقف على حقيقته .

ولحسن ظن الفلاسفة المسلمين — ومنهم الفارابى — بالفلسفة الاغريقية ، وليقينهم بعدم تضارب الفلسفة مع الاسلام ، دخلوا التفلسف — وعلى الأخص الفارابى — على اساس « الجمع » بين الآراء الفلسفية ، و« التوفيق » فيا يبدوا منها مختلفا بعضه مع بعض او مع الاسلام .

لا اريد ان اكثر من ضرب الأمثلة التى تبين جهد الفارابى فى التوفيق ، ولذا ساكتفى بذكر مثال واحد ، الا وهو التدليل على وجود الله ، ففى هذا المجال يستعير الفارابى من الافلاطونية الحديثة طريقتها فيا يسمى « بالجدل النازل » « والجدل الصاعد » وفى الحديث عن ذلك يستأنس بآية قرآنية ، وهى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » (٤) .

ونص حديثه :

« لك ان تلحظ عالم الخلق فترى فيه آيات الصنعة ، ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض ، وتعلم أنه لابد من وجود الذات .

فان اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد .

وان اعتبرت عالم الوجود المحض فأنت نازل .

تعرف بالنزول : أن ليس هذا .... ذاك

وتعرف بالصعود : أن ليس هذا .... هذا

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

---

٤ — فصلت ٥٣ .

وكان الفارابى يقول : هناك دليلان على وجود الله :ـــ

الدليل الأول : أن ننظر إلى المخلوقات أو إلى ما يسميه هو: بعالم الخلق ـــ وهو عالم يأتى بعد عالم الأمر أو عالم الملائكة ، وقبل هذا يكون عالم الربوبية ، أو عالم الوجود الالهى فتشهد فى المخلوقات صنعة تدل على صانع لها وهذا الصانع هو الله تعالى .

وهذا الدليل هو دليل تصاعدى : تنقل من عالم الخلق إلى الأعلى وهو عالم الوجود الالهى .

الدليل الثانى : ان ننظر إلى « الوجود المحض » أى إلى الوجود من حيث هو وجود فنصل من هذه النظرة إلى أن هناك واجب الوجود لذاته وهو الله تعالى ، وهو السبب فى وجود الممكن ، والممكن هو ما بعد الله من عوالم . هو عالم الامر أو الملائكة ، وعالم الخلق أو المخلوقات و بالأخص الانسان .

وهذا الدليل على وجود الله دليل تنازلى ، لأنه من وجود واجب الوجود بذاته : يعرف عالم المخلوقات .. والعقل اذن فى هذا الدليل ينتقل من الأعلى وهو واجب الوجود بذاته أو الله .. إلى الادنى وهو وجوب واجب الوجود بغيره ، أو المخلوقات .

ثم يجعل الآية التى استشهد بها هنا تعطى الطريقين فى الجدل وهما : الصاعد ... « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ... يشير فى تقديره إلى الجدل الصاعد . فأمارات الله فى عالم المخلوقات ، وفى النفوس البشرية تعطى الدليل على وجود الله الحق ، فهى صنعة ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، والصانع هو الله تعالى : فهو دليل من الأدنى على الأعلى ، دليل المخلوقات على الله ، وعالم المخلوقات تجل لوجود الله ، فكأنه هو ... هو» وقوله :

« أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » يشير فى تقديره أيضا الى الجدل النازل ، وهو الاستدلال بوجود الله على وجود عالم المخلوقات فالله هو الخالق وأمارة خلقه فى وجود هذا العالم ، فوجوده شهيد على وجود غيره ، وهذا دليل من الأعلى على الادنى والوجود الاعلى غير الوجود الادنى : ليس هذا ... ذاك ، وهذا التركيب الفلسفى للفارابى يتكون من عناصر ثلاثة :ـــ

أ) العنصر الارسطى ، وهو عنصر الواجب بذاته ، والممكن بذاته ، وصلة كل منها بالآخر .

ب) العنصر الافلاطونى الحديث وهو عنصر توجيه الاستدلال بكل منها على الاخر : على أن يكون مرة من الأعلى الى الأدنى ، ومرة أخرى على العكس : من الادنى الى الاعلى مع تسمية وجه منها بالجدل النازل ، والاخر بالجدل الصاعد .

جـ) العنصر الاسلامى وهو ما جاء فى الآية القرآنية .

والتوفيق الذى ينسب هنا هو احتواء الاية بعمله الفلسفى على مضمون العنصرين الاولين وكأن هذين العنصرين يكونان معنى الاية القرآنية ... وكان القرآن فى اعتباره يتوجم عن الفلسفة وعملية التوفيق هى : عملية « مقدم » و « تال » فى قياس منطقى أرسطى .

يجب الا ينسى الباحثون فى هذا المجال أن عمل الفارابى — ومن نحا نحوه من الفلاسفة المسلمين — لايمثل الا جانبا من جوانب الفكر الاسلامى اذ من المعروف أن جمهرة علماء المسلمين لم يوافقوه على هذا المنهج حتى الذين قبلوا الفلسفة اليونانية استثنوا منها الجانب الالهى ، لأنه لايتفق مع العقيدة الاسلامية . وليس معنى انهم لم يقبلوا هذا الجانب من الفلسفة اليونانية انهم حاربوا من يتعلمها ، أو تعقبوه فى رزقه او عمله ... لا وما يحدثنا به التاريخ من حرق كتب بعض الفلاسفة واضطهادهم فليس الا حوادث استثنائية قام بها مجموعة لاتعرف فقه الاسلام فى مجال حرية الفكر ، لأن حرب الفكر واضطهاده ليس من طبيعة الاسلام فهو الداعى الى شد الرحال للتعلم ولو بالصين ، فالعلم فى المجتمع الاسلامى كلأ مباح للجميع ، لايمنع عنه أحد ، ولاتقيد حريته فى البحث ، لكن هذا لايمنع ان تقوم مجادلات فكرية حول مايتنافى مع المبادىء الاسلامية وذلك أمر لايتنافى مع طبيعة الفكر البشرى ، فانه يتصارع و يتناطح فى حدود مجال الجدل الفكرى ، وهذا هو ماحدث فى المجتمع الاسلامى بالنسبة لمن رفضوا بعض جوانب الفلسفة اليونانية وأشهر مثل على هذا ماقام به حجة الاسلام **الامام الغزالى** فقد صنف الفلاسفة الى دهريين وطبيعيين والٰهيين ، ثم قال :

الصنف الأول : الدهريون وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه و بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون ابدا وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثانى : الطبيعيون وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، واكثروا الخوض فى علم تشريح اعضاء الحيوانات .

ثم بعد أن يبين دقائق بحثهم يحكم عليهم بالزندقة أيضا معللا ذلك بأن أصل الايمان هو : الايمان بالله واليوم الاخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الاخر وان آمنوا بالله وصفاته ، ثم يذكر ان **الصنف الثالث** وهم الالهيون ردوا على الصنفين الأولين من الدهريين والطبيعيين وأوردوا فى الكشف عن اخطائهم ماأغنوا به غيرهم عن القيام بهذا العمل ، الا أنه يقول انهم — الالهيين — استبقوا ايضا من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفقوا للتخلص منها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وامثالهما .

وعلى الرغم من ان الغزالى رمى الفلاسفة كلهم بالكفر والزندقة — سواء كان ذلك بسبب انحراف مذهبهم كله ، او بسبب انحراف بعض آرائهم فى نظره — الا أنه حين تعرض لفروع الفلسفة من : رياضية ومنطقية ، وطبيعية ، والٰهية وسياسية ، وخلقية ، فانه قبل جميع فروعها

جملة ــ وان هاجم بعض الاتجاهات فى كل فرع ــ الا فرع الالهيات ، فقد ذكر ان فيه اكثر أغاليط الفلاسفة ، وأرجع اخطاءهم فى هذا الفرع الى عشرين ، كفرهم فى ثلاثة فقط وهى قولهم :ــ

١ ــ ان الأجساد لاتحشر وانما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة والمثوبات والعقوبات روحانية لاجسمانية .

٢ ــ وقولهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات .

٣ ــ وقولهم بقدم العالم وأزليته .

معللا ذلك بأن احدا من المسلمين لم يذهب إلى شيء من هذه المسائل الثلاث .

هذه الحملة التى قادها الغزالى ضد الفلسفة والفلاسفة ، ان دلت على شيء فانما تدل على أن الأمر لم يتعد مجال الجدل الفكرى بدليل أن الفلسفة بقيت فى المجتمع الاسلامى ، وظلت تدرس فى جامعاته ومدارسه بعد الغزالى ، ولم تزل تدرس حتى اليوم ، مما يعطى انطباعا بأن المسلمين لم يقفوا من الفكر الاجنبى موقف الرافض المعارض لتعلمه ، المحارب له باساليب خارجة عن نطاق المعارضة الفكرية ، وهذه هى روح الاسلام : حرية فى الفكر ، تعلما ونقاشا وتحليلا ، ومحاورة ومعارضة الحجة بالحجة ، فما يحمل من الأفكار خاصية الثبوت والدوام بقى فى المجتمع ورسخ فيه . وما كان مهلهل الصورة ، ضعيف البنيان ، ذهب واندثر ، وتلك سنة الله فى خلقه فأما الزبد فيذهب جفاء ، أما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض .

مراجــع البحث

١ ــ الغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود

٢ ــ محمد البهى : الجانب الالهى من التفكر الإسلامى

٣ ــ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية

٤ ــ ألبير ريفو : الفلسفة اليونانية ، اصولها وتاريخها ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ابوبكر زكــرى

٥ ــ أحمد أمين ، زكى نجيب محمود : قصة الفلسفة اليونانية

٦ ــ أحمد أمين : فجر الاسلام

٧ ــ على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام

المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة

أ. د. حامد طاهر *

يُعتبر موضوع المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة من أهم الموضوعات التى تشغل أذهان الباحثين المعاصرين فى علم المنهج Méthodologie بصفة خاصة، والفلسفة المعاصرة بصفة عامة(١). ومن الملاحظ أن بحث مثل هذا الموضوع مازال نادراً للغاية، إنْ لم يكن غائباً تماماً من اللغة العربية، وذلك على الرغم من الحاجة الشديدة إلى بيانه وتأصيله فى أذهان طلاب العلم، والباحثين على حد سواء، نظراً لما له من أهمية بالغة فى تحديد نظرتهم الصحيحة إلى الأمور، وتوجيه أحكامهم الصائبة عليها(٢).

وهدفنا من هذا البحث أن نحاول بيان مفهوم كل من المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة فى لغة مبسطة، تعتمد إلى حد كبير على أمثلة مستمدة من واقع بيئتنا العربية والإسلامية.

وتتمثل البداية فى أننا عندما نفتح كتاباً، أو نقرأ بحثاً يعالج مشكلة ما، يكون من حقنا أن نتساءل: هل حقيقة هذه المشكلة تفرض نفسها على واقعنا، وتمثل لنا عقبة فى الفكر والسلوك، أم أن المؤلف يتسلّى بعرضها، أو يفتعل أهميتها، أو يحاول أن يشغلنا بشىء لا وجود له؟

ولا شك أن هذا التساؤل البسيط، والأساسى فى نفس الوقت حول نوعية المشكلة المطروحة يدفعنا إلى ضرورة التفكير فى وضع نوع من تصنيف المشكلات، وبالتالى إعطاء كل منها قدراً من الأهمية، قد يزيد أو ينقص تبعاً لمدى خطورتها. ومن المعروف أن هناك مشكلات مهمة،

---

*ـ أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

١ـ Méthodologie vers une science de l'action, par groupe d'étude du C.N.O.F.. Paris 1964.

٢ـ سبق أن كتبنا عن ذلك فصلا بعنوان « المشكلات الحقيقية والزائفة فى الفلسفة الإسلامية. انظر كتابنا: مدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية، القاهرة ١٩٨٥. وانظر أيضا مقالتنا « خمس مشكلات حقيقية أمام الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث » دراسات عربية وإسلامية جـ ٩ سنة ١٩٨٩

وأخرى أكثر أهمية ، ومشكلات ملحة وأخرى أكثر إلحاحاً ، وأخيراً مشكلات حقيقية وأخرى زائفة . .

والمشكلة الحقيقية — فى رأينا — هى التى تمثّل عقبة تعوق (الفعل الإنسانى) أو (الفكر الإنسانى) عن الاستمرار فى تقدمه الطبيعى . فالفعل الإنسانى بدون عوائق يمكنه أن يمد سيطرته على الطبيعة ، ويحسن الاستفادة منها إلى أقصى ما يستطيع ، والفكر الإنسانى بدون عوائق بإمكانه أن يُحدث الانسجام المطلوب للإنسان مع الطبيعة ، ومع الناس ، ومع الله .

لكن ما يمنع كلاً من الفعل الإنسانى والفكر الإنسانى عن مواصلة تقدمه الطبيعى نحو السيطرة ، والاستفادة ، والانسجام — هو ما يمكن أن نطلق عليه عقبات ، أو عوائق ، أو مشكلات حقيقية .

وقد تكون المشكلة الحقيقية واضحة فى معظم الأحيان ، ولكنها قد تختفى أحيانا فلا تبدو منها إلا أجزاء بسيطة ، تُوقع الناس فى عدم تقديرها التقدير الصحيح . لذلك فإن المشكلة الحقيقية تحتاج إلى اكتشاف وتعرّف وتحديد . وهنا قد يقع الإنسان فى أخطاء الحسّ ، فيرى مشكلةً : ما ليس كذلك . وكما أن الحسّ قد ينخدع أحياناً فيرى الشىء على غير حقيقته ، فإن العقل قد ينخدع أيضا فيصدر أحكاماً لا تتفق مع قوانين الفكر من ناحية ، أو لا تنطبق على حقائقها فى عالم الأشياء من ناحية أخرى .

وليس من المستحيل أن نجد لهذا الخداع أو الانخداع أسباباً محدودة ، ترتبط بكل حالة على حدة . فنحن — مثلا — عندما نكتشف خيانة صديق ، أو زندقة شخص كنا نعتبره صالحاً ، لا يكون هذا الاكتشاف — فى واقع الأمر — الا تصحيحاً لأخطائنا نحن . ومن المعروف أننا لا نتنبّه كثيراً أو جيداً لأحاسيسنا التى نبنى عليها أحكامنا . وبمرور الوقت يختبىء الخطأ الأول تحت أكوام متراكمة من الاعتبارات ، والتجاوزات ، والمسامحات أيضا ، حتى تأتى اللحظة الحاسمة ، فنفاجأ بالحدث الرهيب !

إن « الصديق الخائن » هو فى حقيقة الأمر شخص خائن ، وخطؤنا أننا اعتبرناه صديقا . و « الزنديق الصالح » ليس إلا شخصاً نجح فى إقناعنا بعكس حقيقته . وفى كلا الحالين ، يظل الفحصُ الهادىء ، واستخلاصُ النتائج من التجارب المكتسبة ، وعدم إغفال التفاصيل الدقيقة ذات الدلالات الهامة — عناصر أساسية كان من الممكن أن نتسلح بها حتى ننجو من فخ المفاجأة المذهلة .

المشكلة الحقيقية إذن عقبة . والعقبة — كما هو واضح — تظهر فى طريق السائر فتمنعه من المسير أو تُصعّب عليه المرور . وكما أن هناك مشكلات محسوسة تبدأ من مصادفة حجر كبير فى الطريق ، أو حفرة أمام السيارة ، فإن هناك مشكلات عميقة مثل كيفية التأقلم مع المجتمع ، أو السلوك الفاشل فى الحياة ، كما أن هناك مشكلات أكثر عمقاً مثل كيفية الوصول إلى اليقين الكامل فى مجال الإيمان ، أو الحصول على طمأنينة النفس وسط مطالب الحياة المتلاحقة .

لكن مَنْ الذين يحكم على مشكلة ما بأنها حقيقية ؟ هل هو صاحب المشكلة الذى يعانى منها ، أم الباحث المتخصص فى بحثها ومحاولة إيجاد حلٍّ لها ، أم الفيلسوف الذى يتابع المنظر كله من بُعْدٍ ؟

الواقع أن هؤلاء الثلاثة شركاء فى ذلك . فصاحب المشكلة هو الذى تنعكس عليه الآثار المباشرة للمشكلة . ومظاهر هذه الآثار هى مجال عمل الباحث المتخصص . أما الفيلسوف فهو الذى يمكنه بيان مدى أهمية هذه المشكلة بالنسبة لغيرها ، كما يمكنه تقدير آثارها غير المباشرة ، وقيمة الحلول المقترحة لها .

غير أن العصر الحديث ، الذى يمكن أن نطلق عليه بحق عصر الاعلام ، قد أصبح المجتمع فيه خاضعا لسيل وافر من المعلومات والإعلانات التى كان من المأمول أن تكون هادية له فى التعرف على مشكلاته الحقيقية ، لكنها أصبحت — لكثرتها ، وشدة تشويشها — عبئا ثقيلا عليه (٣) .

فكثيرا ما تقع (حادثة) فتتلقفها وسائل الإعلام المختلفة (الصحافة ، الإذاعة ، التليفزيون ومشتقاتها) لتصنع منها (ظاهرة) عامة ، ينشغل بها الرأى العام ، لفترة تطول أو تقصر ، ويساهم فيها المتخصصون بآرائهم ، وتجرى حولها استطلاعات الرأى ، وتثور بصددها المناقشات ، وتعقد لها الندوات .. وواقع الحال أن تلك الحادثة لاتعدو أن تكون مجرد شىء عابر ، لا يؤثر فى مسيرة المجتمع ، ولا يعوق حركته .

ولعلنا نذكر منذ عدة سنوات تلك الحادثة الشنيعة التى أقدم فيها طالب مصرى على قتل والديه . وكل ماسبقت الإشارة إليه فى الفترة السابقة قد جرى بالنسبة لهذه الحادثة . وقد اشتغلت وسائل الإعلام حينئذ بعظم الجرم ، وراح المحلّلون النفسيون ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء الدين ، ورجال الشرطة والقضاء يُدلون بآرائهم المختلفة حول هذه (الظاهرة) ودوافعها القريبة والبعيدة ، وآثارها على الفرد والمجتمع ، و يقترحون الحلول المختلفة لكيفية تجنّبها .

و بينما كنت أتابع مثل غيرى من الناس أخبار هذه الحادثة ، استوقفتنى إحصائية وردتْ فى خبر هامشى تماما ، تؤكد أن عدد قتلى السكك الحديدية يبلغ أسبوعيا ثلاثين شخصا . وهالنى الرقم ، فأعدت قراءة الخبر ، وتأملتُ :

أليستْ هذه بالفعل مشكلة حقيقية ، لأنها تتعلق بعدد من الأحياء يتكرر سقوطهم أسبوعيا ، وتمثل خللاً فى نظام ينبغى تداركه ؟ أليس من الأوْلى أن تركز وسائل الإعلام — وهى مُنبِّهات جيدة — على تلك (المشكلة) أكثر من تركيزها على مشكلة الطالب — التى لا شك فى شناعتها هى الأخرى ؟

---

٣ — انظر د. جيهان رشتى ، الأسس العلمية لنظريات الإعلام . ص ٤١١ ومابعدها دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٧٨

إن هذين المثالين يبيّنان بوضوح ما نقصد إليه من التميز بين المشكلة الحقيقية والمشكلة الزائفة ، ومن أن الاعلام المعاصر قد يتدخل فى العصر الحاضر لتشويش الرؤية والمقاييس معا . وسوف يقودنا هذا الوضع إلى ضرورة التأكيد على دور الفيلسوف فى المجتمع الحديث ، حيث ينبغى عليه أن يصمد أمام حملات الإعلام الصاخبة ، لكى يتبين — بهدوء — حقيقة الأمر فى المسألة . فإنه لا أمل فى جمهور خاضع تماماً لوسائل الإعلام الحديثة ، وكذلك فى متخصصين لا يرون أبعد من نطاق اهتمامهم .. إذنْ لم يبقَ إلا الفيلسوف القادر على الرؤية الشاملة ، والعميقة ، لكى يدق ناقوس الخطر ، و ينبه هؤلاء وأولئك إلى ما يُحدق بهم .

وقد تستغرق المشكلةُ الزائفة فترة أطول ، وتحتل من اهتمام الناس ، وحتى المتخصصين أحيانا مساحة أكبر مما قد تحظى به مشكلة حقيقية . وهنا يكمن خطر آخر ، يتمثل فى اعتبار طول المدة التى قد تستغرقها مشكلة زائفة دليلاً على اعتبارها مشكلة حقيقية (٤) .

وفى تاريخنا الفكرى القديم مثال واضح على ذلك : فقد شاع فى عهد الدولة العباسية القولُ بخلق القرآن ، على اعتبار أن هذا القول جزء من مشكلة الصفات الإلهية التى اختلفت المذاهب الكلامية حينئذ حولها . وكان من المتوقع أن يظل هذا القول ، وما يقابله .. فى إطار المناقشات النظرية بين العلماء والمتخصصين ، ولا يتعدى حلقات الدرس والمناظرة . لكننا وجدناه يخرج من أروقة المساجد إلى ديوان الخلافة ، ويمتد إلى أجهزة الشرطة ، و يصبح أحد مشاغل الناس الرئيسية فى مطلع القرن الثالث الهجرى . فيستمر خلال حكم المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ، والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧) ثم لا يلبث أن يهدأ فى عهد الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢) ، و يتحول إلى النقيض تماماً فى عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧) .

والمتأمل فى حقيقة هذه المشكلة (مشكلة خلق القرآن) يجد أنها نموذج واضح للمشكلة الزائفة التى شغلت الرأى العام ، واستحوذت على اهتمام المتخصصين دون أن يكون لها سند واقعى . والواقعية التى نقصدها هنا تتمثل فى إحساس الناس بهذه المشكلة كعقبة تعوق بالفعل مسيرة فكرهم ، أو تحدّ من انطلاقه .

وتطفو المشكلة الزائفة على السطح نتيجة لعوامل كثيرة ، و يتدخل فى دفعها إلى بؤرة الاهتمام أفراد أو جماعات ذات مصالح خاصة ، يكون من همها (تمرير) هذه المصالح تحت ستار من دخان تلك المشكلات . وهنا يقفز إلى الذهن التعبير الشائع « ذرّاً للرماد فى العيون » ليُجسّد تماماً تلك الحالة التى نقصدها .

---

٤ — انظر:

ROUGIER. Les Pseudo- Problèmes. in «La Méthode dans Les Sciences Modernes » P. 287. Paris N.O.S.

إن الشخص الذى يسعى لتحقيق غرضه الخاص يحتاج فى الغالب إلى موافقة الآخرين والا لَـمَا تحقق غرضُه . ولما كان مثل هذا الشخص لا يحظى بتلك الموافقة فى كل الأحوال ، فإنه يلجأ إلى استخدام الحيلة ، وهى هنا عبارة عن شَغْل الآخرين بأمر مختلف تماماً عما يرمى إليه (مثال اشعال حريق لإخفاء سرقة !) .

والمشكلة الزائفة تشوش نظام العقل ، وتعطل حركة الفكر فيه . فهى أولاً تحول اهتمامه إلى مجال غير حقيقى ، وثانيا تستهلك طاقته فى البحث عن حل لعقدة لا وجود لها ، ثم هى أخيراً تضطره إلى استخدام مناهج غير عقلية أو غير تجريبية . وهذه المناهج تعتمد فى الغالب على الخيال بدل الملاحظة الدقيقة ، وتقوم على الأوهام والشائعات بدلاً من استقصاء الظواهر، وتسجيل نقاط الاتفاق والاختلاف بينها .

وفى كل مجال من مجالات الحياة والفكر، يمكننا أن نلتقى بأمثال هذه المشكلات الزائفة . ولا شك فى أن تقدم العلم كان رهناً بموقفه الصارم منها ، ولذلك جاء انتشار المنهج التجريبى على حساب شيوع المشكلات الزائفة فى المجتمعات الغربية . فقد أخرج هذا المنهج الباحثين من تأملاتهم الذاتية حول الأشياء إلى ضرورة مواجهتها بالملاحظات المتعددة ، وَقَضى على عشوائية الأحكام الفردية بالاحتكام إلى التجربة الواقعية ، لهذا رأينا العلوم التجريبية التى استخدمت هذا المنهج الحاسم تتقدم باستمرار، وذلك بعد أن تأكدتْ مكانتها بمجموعة متراكمة من الحقائق والمسلّمات(٥) .

أما العلوم الإنسانية ، والتى لا يصلح المنهج التجريبى لمعظم فروعها ، فمازالت متعثرة . وأحد الأسباب الرئيسية فى ذلك أنها ما زالت تحتوى على الكثير من المشكلات الزائفة التى تبدد جهود الدارسين فيها ، وتحوّل اهتمامهم عن بحث المسائل الحقيقية إلى دراسة مسائل ومشكلات وهمية أو زائفة .

نجد الباحث فى هذه العلوم يختار موضوع بحثه مشكلة لا تمثّل عقبة حقيقية ، ثم يأخذ فى بناء هيكل عظمى حولها ، يتكوّن عادة من تجميع آراء متضاربة ، ومناقشات جدلية ، تزيد من صعوبتها فى ذهنه . وبهذا يصدق عليه القول بأنه « هو الذى يصنع عقدته بنفسه » و بالتالى فإنه لا يصل إلى نتيجة محددة ، يمكنها أن تُضيف جديداً أو يعتمد عليها فيما بعد ، بل على العكس ، كثيراً ما يُوهم غيره من الباحثين أن يواصلوا السير على نفس الدرب الذى سلكه(٦) .

---

٥ G. Bénézé, La Méthode expérimentale p.53. Paris 1954.

٦ـ هناك نكتة مصرية تعبر ـ تماما ـ عن هذا الموقف . وسأعرضها هنا باللغة الفصحى مع أن تحويلها من لهجتها العامية يفقدها الكثير من الظلال : يقال إن رجلاً أصابه التعب فأسند رأسه على باب دكان مغلق ، ومر به شخص فتوقع أنه ينتظر فتح الدكان ليشترى شيئاً منها ، فاصطف وراءه ، وكلما مر شخص جال به نفس الخاطر ، فوقف ، حتى طال الطابور . وفى

ولكل عصر مشكلاته الخاصة به ، والنابعة من ظروفه . صحيح أن بعض المشكلات تضرب بجذورها فى الماضى ، وربما فى الماضى السحيق ، ولكنها عندما تتفجر فى عصر ما ، فإنها تستحق أن تنسب إلى ذلك العصر ، و يصبح على أهله أن يقوموا بتجديدها ، ومحاولة البحث عن حلول لها .

وليس من العسير وضع قائمة بالمشكلات المثارة فى كل عصر ، أو على الأقل بأهم هذه المشكلات . وهنا مقياس يمكن أن نستعين به فى هذا المجال . وهو أن « مايصدُق على الحاضر يمكن أن يصدُق على الماضى » . ومعنى ذلك أننا إذا تمكنّا من تصنيف مشكلات العصر الحاضر ، أمكننا أن نفهم — على أساس هذا التصنيف — مشكلات العصور السابقة ... و يلاحظ أنه على الرغم من أهمية مثل هذا التصنيف ، إلا أنه لم يتم حتى الآن — على النحو الفلسفى الذى نقصده .

ولنضرب لذلك مثالاً واضحا : فالقرية المصرية كانت لها فى الماضى مشكلات خاصة . لكننا لانستطيع أن نقدر حجمها الحقيقى ، ولا خطورتها ، ولا تأثيرها على الناس ، لسبب بسيط هو أننا لم نرها ، ولم نحسّ بها ، وكل مانعرفه إنما تلقيناه عن طريق السماع (أو القراءة) . أما مشكلاتها الحاضرة فهى أمامنا ماثلة وملموسة . فإذا استطعنا أن نحددها أولاً ، ثم نصنّفها تبعاً لأهميتها أو خطورتها ثانياً . أمكننا بعد ذلك أن (نتصور) ماكانت عليه المشكلات السابقة فى نفس القرية . وفى رأينا أن هذا المبدأ ينطبق على المدينة ، والمجتمع ، والعصر ، و يصلح بالتالى أساساً مهما فى مجال تفسير التاريخ الإسلامى ، الذى مازالت بعض حلقاته مفقودة .

لكن هل توجد مقاييس معينة يمكن أن يستعان بها فى اعتبار مشكلة ما أكثر أهمية من غيرها ؟ نعم فما تتطلبه حاجات الإنسان الأساسية يأتى فى المقدمة . وهو يتمثل — على الرغم من اختلاف الأسماء والأشكال والصيغ — فى ثلاثة أشياء ، هى المطعم ، والملبس ، والمسكن . ثم يأتى بعد ذلك كل مايرتبط بهذه الحاجات الثلاث من ضرورات تتفاوت حاجةُ الإنسان إليها قوة وضعفاً ، حتى تصل فى النهاية إلى مستوى الكماليات .

وهنا تبرز ، مرة أخرى ، المشكلات الزائفة التى يتم فى إطارها تصور الكماليات على أنها من الضرور يات .

= النهاية جاء شخص ليسأل الأخير : لم وقوف هذا الطابور ؟ فأجابه : لا أعرف بالضبط ، ولكن يبدو أنه لشىء مهم ! فذهب إلى الشخص الأول وسأله : لماذا أنت واقف هكذا ؟ فقال : لقد تعبت فأسندت رأسى . فقال له : عليك أن تنصرف . فإن هؤلاء جميعا يقفون وراءك على أمل أنك تنتظر شراء شىء مهم ! فنظر الرجل خلفه ، وعندما وجد الطابور طو يلا قال للسائل : هل تر يد أن أترك مكانى فى الطابور ؟!

ومن أشد مايحوّل اهتمام الإنسان من الإحساس بالمشكلة الحقيقية إلى المشكلة الزائفة : الميل إلى التظاهر. والتظاهر يعنى ببساطة إظهار ماليس حقيقيا ، وإخفاء أو تجاهل ما هو حقيقي . والتظاهر أحد العيوب الرئيسية المتفشية فى مجتمعات العالم الثالث . وهويوجد لدى العامة كما يوجد لدى المتخصصين . فمثلاً على الرغم من انتشار الفقر بين الغالبية العظمى من هذه المجتمعات ، إلا أننا نجدها تنفق ببذخ على بعض المناسبات الإجتماعية إلى حد يُد هش بالفعل أهل البلاد المتقدمة والغنية . وحسبنا أن نشير هنا إلى ماينفقه الناس على الأعراس وأيضا على المآتم فى بلادنا ، ومقدار مايتكبّدونه من مغارم فى مثل هذه المناسبات .

إن التفاخر الاجتماعى الذى يستنفد أموالاً طائلة فى بلدان العالم الثالث لايقوم فى الواقع على أسس حقيقية . ومن المؤكد أنه مرتبط بجهل متراكم ، وتقاليد سيئة ، ومع ذلك فإنها مازالت مسيطرة ، ثم هو فى النهاية : تعبير غير منضبط عن مشاعر زائفة .

فى الامثال العربية القديمة مثلٌ جيد يقول (ليست النائحة كالثكلى) وأصل هذا المثل أن أهل الميت كانوا يستأجرون امرأة متخصصة فى العويل على الميت . وهذا منتهى الخداع فى التعبير المستأجر عن الحزن . ومع ذلك فإن المثل يؤكد المعنى الذى نريد الوصول إليه : فهو يفرق بوضوح بين حزن الثكلى الحقيقى على فقد الابن أو البنت ، و بين الحزن الزائف لتلك النائحة المستأجرة !

وقد تكون علاقة المشكلة الزائفة بالمشكلة الحقيقية مثل علاقة النسخة المزيفة لتحفة فنية أصيلة أو قطعة نقود حقيقية . فهى قد تشبهها إلى حد كبير من حيث الشكل ، وتبدو — فى الظاهر — أنها عقبة حقيقية ، تسترعى الاهتمام ، وتستحق البحث عن حل ، ولكنها فى واقع الأمر ليست كذلك . والعبرة هنا بالنتائج فالمشكلة الزائفة قد تبدأ وتختفى دون أن يحسّ الناس إزاءها بالقلق الذى ينتابهم من إحساسهم بالمشكلة الحقيقية .

وخطورة المشكلة الحقيقية أنها لاتتعمقُ فقط رأسياً ، وإنما تمتد كذلك أفقيا . وهى فى أثناء امتدادها تشتبك أو تتداخل مع غيرها من المشكلات الأخرى ، فتزداد الأمور تعقيدا ، وتصبح الحالة حينئذ أشبه بلفّة الخيط التى تختلط خيوطها ، وتلتوى ، وتنعقد ، و يصير من الصعب تتبّع خيط واحد منها . وأوضح مثال على ذلك ما نراه من تشابك بين مشكلات مثل : زيادة السكان ، والإسكان ، والإنتاج ، والتعليم ، والبطالة ، والمخدرات . فهذه مشكلات حقيقية . وكل منها متصل — إلى حد كبير — بالمشكلات الأخرى ، وليس من السهل — كما يتصور معظم الناس — أن نقوم بحل كل مشكلة منها على حدة . وإنما البداية تمكن فى وضع أيدينا على المشكلة — الأم ، وتحديد ماتفرع عنها أو اتصل بها من مشكلات : متى كان ذلك ؟ وكيف تطور؟ ونقاط الالتقاء والتشابك ؟ كل ذلك قبل أن نقول : ما هو الحل ؟

ولا شك فى أن حل المشكلة الحقيقية أمر صعب . فهى لاتنتهى بقرار يصدره فرد أو تتخذه حكومة . بل إنه يتم عن طريق إعداد جماعى شامل وطويل ، يشترك فيه أصحاب المشكلة أنفسهم مع القائمين على حلها . وأول مايتطلبه هذا الإعداد هو الإحساس بحدة المشكلة بعد المعاناة منها ، والإرادة الصادقة فى ضرورة التغلب عليها . و بالطبع فإن هذا الإحساس وتلك الإرادة لايتكونان بين يوم وليلة . إنهما يستلزمان وقتا ، وتمهيدا ، وتوعية مستمرة ، فضلاً عن إخضاع المشكلة للملاحظة المستمرة ، وتسجيل كافة المعلومات عنها .

أما المشكلة الزائفة فحلّها ، أو القضاء عليها ، أسهل بكثير والسبب أنها — فى العصر الحاضر — أصبحت مرتبطة بوسائل الإعلام كما سبقت الإشارة إلى ذلك . و يكفى أن يصدر قرار بوقف الحديث عنها حتى تختفى من أذهان الناس . وإنما يحدث ذلك لأنها لم تكن — فى واقع الأمر — عائقاً حقيقياً لهم ، وإنما كانت « مَشْغَلَةً » أضاعوا فيها وقتهم ، و بددوا حولها أفكارهم لفترة من الوقت .

وتقوم (اللغة) بدور هام فى تحديد المشكلات ، أو بالأحرى ، فى مرحلة طرحها . فالمشكلة التى يتم طرحها جيداً يمكنها أن توجّه العقل البشرى بسهولة إلى امكانية حلها ، فى حين أن المشكلة التى يساء عرضها ، وخاصة عن طريق اللغة ، تتطلب مزيداً من الجهد ، بل إنها قد تضلّل المتخصصين أنفسهم ، فيضلّون فى تعاريجها (٧) .

واللغة التى نقصدها هى اللغة التى تتميز بخاصتيْن أساسيتيْن هما : الدقة ، والوضوح . وفى سبيل ذلك يمكنها أن تستعين بالأرقام ، والرسم البيانى ، والخرائط .. ومن المعروف أن هذه الوسائل تنزع إلى الاختصار ، لأن الإطناب هو غالباً طريق الزلل . وفيه يضل الفكر ، وتتميّع المشكلات . بل إن الأمور الواضحة قد تتعقّد أحيانا وتغمض بكثرة الحديث حولها . وهنا لابد أن نستفيد من نصيحة المنهج التجريبى الذى يوصى العلماء بالاقتصاد فى استخدام اللغة ، بحيث يعبر كل لفظ عن معنى ، مع تجنب الغموض ، والبعد عن الحشو والتكرار .

ويمكن القول بأن المشكلات الزائفة ترتبط غالباً — ويمكن أن نقول : دائما — بلغة فضفاضة ، تنزع إلى الاستطراد ، وتتسم بالغموض ، وتكثر من استخدام الألفاظ فى غير دلالاتها الحقيقية .

٧— يقول بواللو : « لايُتصوَّر جيداً إلا ماقيل بوضوح » و يقول كوندياك : « ليس العلم الجيد إلا لغة بُنيتْ جيدا » وانظر ترجمتنا المقال جيرار بيتيو « المشكلات المعاصرة للغة العلمية » بمجلة مجمع اللغة العربية — الجزء ٥٢ ، نوفمبر ١٩٨٣ .

والمثال على ذلك نجده صارخاً لدى أولئك الذين يكثرون الحديث عن (أزمة الثقافة ، والتفاعل الثقافى ، والغزو الثقافى ، والمستقبل الثقافى .. الخ) والدليل على ذلك أننا لو طلبنا من أحدهم أن يحدد لنا المشكلة فى كلمات ، أو يفصح عن رأيه فى عبارات لما استطاع . والسبب فى رأينا بسيط للغاية . وهو أنه لا يتحدث عن مشكلة حقيقية ، تمثل عقبة فى سبيل الفكر أو الفعل الإنسانى .

فلسفة التاريخ الاسلامى

أ . د . عبد الحميد ابراهيم *

١ ـ فى صفر الخير سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١م) ، يذكر الجبرتى (١) أن الناس فتحوا الجامع الأزهر ، وشرعوا فى تنظيفه وكنسه ، ابتهاجا باليوم الذى أخذ الفرنسيون فيه يجلون عن مصر ، وكان يوما مشهودا ، وموسما وبهجة وعيدا ، عمت المسلمين فيه المسرات ، ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات ، ودقت البشائر ، وقرت النواظر (٢) .

٢ ـ وكان الجبرتى قد ذكر من قبل أن الفرنسين بعد مقتل كليبر ، زاد ارتيابهم فى الأزهر الشريف ، وشرعوا فى حفر مابه من أماكن ، بحجة التفتيش على السلاح ، فاضطر علماؤه إلى اقفاله وتسمير أبوابه من كل الجهات (٣) .

٣ ـ إذن حين يفرح الناس يضيئون الأزهر و يكنسونه ، وحين يغتمون يقفلون الأزهر و يسمرونه . إن الأزهر ليس مجرد مكان للعباده ، بل هو رمز للروح المصرية ، حالة آمالها وآلامها . هذا من ناحية .

٤ ـ ومن الناحية الثانية فإن الأزهر الشريف لم يكن مجرد مكان يؤمه أهل القاهرة فقط ، يتدارسون فيه مذاهب الفقه وعلوم الكلام ، و يلتقون بطلابهم من أهل مصر ، بل كان مناره تشع إلى جميع المنطقة ، وتتناثر حول صحنه أروقة للشامى والمغربى والسودانى والتكريتى ، و يؤمه طلاب من جميع الجهات ، ثم يعودون إلى مواطنهم فى العراق والشام والمغرب و باكستان وجميع أرجاء آسيا وأفريقيا ، يحملون رسالة الدين ، و يتحمسون لمبادىء العقيدة .

---

* ـ أستاذ الأدب الحديث وعميد كلية الدراسات العربية بجامعة المنيا .

١ ـ هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتى (١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤هـ ١٨٢٢م) ولد فى القاهرة . وتعلم فى الأزهر الشريف ، وجعله نابليون من كتبة الديوان وولى افتاء الحنفية فى عهد محمد على .

٢ ـ عجائب الآثار ٢ / ٦٨١ .

٣ ـ المرجع السابق ٢ / ٢٢١ .

٥ ــ نحن إذن أمام حقيقتين لايستطيع أن يتجاهلها باحث للتاريخ العربى :

أ- روح الدين هو الذى يحرك المنطقة ، والدين هنا ليس شيئا مخدرا ، أو أفيونا للشعوب ، بل هو يمثل المقاومه والتحفز ضد الدخيل ، و يدفع الجماهير إلى التضحية بكل شىء ، فإما الشهادة واما الانتصار .

ب- إن المنطقة تصدر عن روح واحدة ، وتخضع لتاريخ مشترك ، يصيب مصر مثلا شىء ، فتتحرك جميع المنطقة ، وكأنها الجسد الواحد ممتدا فى الحجاز واليمن و بغداد ودمشق وتونس .

ولعلنا نحتاج إلى شىء من التفصيل والتوثيق .

٦ ــ بعثت الحملة الفرنسية الحس القومى فى نفوس المصريين ، كما يلاحظ ذلك المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الحركة القومية » ، ولكن الملاحظ لهذا التاريخ فى كتابات الرافعى أيضا يجد أن هذا الحس القومى قد اختلط بحس دينى ، وأن العقيدة هى التى كانت وراء ثورات المصريين ضد الفرنسيين ثم الانجليز .

وهى حقيقة واضحة يقول عنها أحد الفرنسيين « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين ، يدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن صباح ومساء ، فبلغ تهييج النفوس أشده ، حتى تكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومى » (٤) .

ومن هنا تحول الأزهر إلى قلعة للنضال إليه يلجأ المصريون ، و بداخله تتكون اللجان الثورية ، ومنه تنطلق الروح المشتعلة التى تلهب الفتيل فى كل مكان . وهى حقيقة سجلتها وقائع الحملة الفرنسية والتى تقول « أما المعسكر العام للثائرين مكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر ، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء المشرق وقد أقام الثائرون المتاريس على نوافذ الشوارع المفضية إليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة » (٥) .

إنَّ الرافعى (٦) حين أراد أن يؤرخ للحركة القوميه خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ركز على دور الأزهر أثناء الحملة الفرنسية والحملات الانجليزية ، وثورة سنة ١٩١٩ ، إن التاريخ للأزهر هنا هو تاريخ للحركة القوميه التى اختلطت بالحس الدينى ، إنه يلخص كل ذلك فيقول « فالأزهر إذن كان مركز الثورة فى أواخر القرن

---

٤ ــ تاريخ الحركة القومية ١ / ٢٧٥ .

٥ ــ المرجع السابق ١ / ٢٨٢ .

٦ ــ هو عبد الرحمن بن عبد اللطيف الرافعى (١٣٠٦ ــ ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٩ ــ ١٩٦٦ م) محام ، مولده ووفاته بالقاهره ، من رجال الحزب الوطنى ، الذى أسسه مصطفى كامل .

الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩م كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القوميه ، التى قامت فى مصر عقب انتهاء الحرب العالمية (الاولى) والتار يخ يعيد نفسه » (٧) .

ومن هنا نجد الحس الديني يتوارى وراء كتابات الجبرتى ، و يصبح هو المحرك لأحداث تاريخه ، إن كتابه « عجائب الآثار » يشبه ملحمة للصراع بين الخير والشر ، أو قل هو الصراع بين المسلمين الذين تحركهم النخوه الدينية ، و بين الكفار الذين يسيئون إلى النخوة الدينية ، وهنا نراه فى كتابه ينتصر لقوة الخير ممثلة فى علماء الدين ، إنه ينهى أحداثاً سيئه بالترجمة للعلماء ، وخاصة من استشهد بيد الفرنسين ، و يذكر مؤلفاتهم وتلاميذهم ، و يذكر الخسارة الفادحة فى فقدهم ، و يترحم عليهم ، و يدعو لهم برضوان الله « ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوى الشافعى الأزهرى ، قرأ على والده وتفقه وأنجب ، ولم يزل ملازما لدروسه حتى توفى والده فتصدر للتدريس فى محله ، واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار يملى و يقيد و يفتى على مذهبه ، و يأتى إليه الفلاحون من جيزه بلاده بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم ، فيقضى بينهم ، و يكتب لهم الفتاوى فى الدعاوى التى يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضى ، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ، و يستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه ، وربما أتوه بهدايا ودراهم ، واشتهر ذكره ، وكان جسيما عظيم اللحية فصيح اللسان ، ولم يزل على حاله حتى اتهم فى فتنة الفرنسيس المتقدمة ، ومات مع من قتل بيد الفرنساوية ، ولم يعلم له قبر (٨) .

يبدأ المؤرخ اليمنى لطف الله جحاف حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر فيقول : « وفيها وردت الأخبار بدخول الفرانسة ، جعل الله ديارهم دارسه ، وغيرهم من الأفرنج الأبالسه ، ديار مصر طهرها الله من الدنس فاستولوا عليها ، ومدوا أيدى الكفر إليها ، وأظهروا بها الفساد ، وعاثوا وتسلطوا على من بها من المسلمين ، ولاثوا كل ذلك بضرب من الخداع ، والمكر والحيل والأطماع (٩) .

ويمضى لطف الله جحاف فيتحدث عن وقع الحملة الفرنسية على نفوس العرب ، إنهم يحسون أنها تهديد لديار المسلمين ، و يقوم فى البلد الحرام . محمد المغربى الجيلاني ، يدعو إلى الجهاد ، ويجتمع عليه المتطوعة ، و يلقى إليه الرجال والنساء بالأموال ويخرج فى

٧ــ المرجع السابق ١ / ٢٧٦ .

٨ــ تاريخ الحركة القوميه ٢ / ٢٧٧ .

٩ــ نصوص يمنيه ص ٨٧ .

أكثر من أربعة الاف نحو صعيد مصر ، و يلتقى بالكفرة ، حتى يستشهد فى سبيل الله ، و يدفن فى أرض مصر ، رمزا لتلك الروح الواحدة التى تشرى فى أرجاء المنطقة .

والقصة نفسها تتكرر عند الجبرتى ، إنه يرصد تلك الروح التى شاعت فى المنطقة ضد الحملة الفرنسية ، و يتحدث أيضا عن هذا المجاهد و يسميه الكيلانى ، و يذكر أنه مغربى الأصل ، كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف ، وسافر إلى الصعيد مجاهدا فى سبيل الله يقاتل الفرنسيس الكفرة(١٠) .

و يتحدث الجبرتى أيضا عن مغربى آخر ، ادعى المهدية ، وحث الناس على الجهاد فى سبيل الله ، ومقاتلة الفرنسيس ، فاجتمع عليه أهل البحيرة ، وحضروا إلى دمنهور ، وقاتلوا من بها من الفرنسيين (١١) .

٨ــ وتأتى قصة « سليمان الحلبى » فتعكس هذا الروح العام الذى يسرى فى كل المنطقة ، إنه أصلا من الشام ومن حلب بالذات ، كان طالب علم فى الأزهر تلقى علوما من مشايخ ينتمون بحكم الولادة إلى أماكن متعددة ، منهم الغزى وغيره ، ولكن هذا لايهم ، فالجميع مجاورون ، وفى صحن الأزهر وتحت أعمدته تختفى الجنسيات ، فقط هناك عقدة واحدة ينتمون إليها ، المصرى والمغربى والغزى فى ذلك سواء ، تعلم الحلبى داخل الأزهر أن الجهاد فريضة ، ورتل آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى الاستشهاد ، فتربص بكليبر قائد الحملة الفرنسية ، وقتله تقربا إلى الله .

دار معه فى قاعة المحكمة الحوار الآتى :ــ

« سئل عن ملته فجاوب أنه من ملة محمد ، وأنه كان سابقا سكن ثلاث سنين فى مصر ، وثلاث سنين أخرى فى مكة والمدينة .

وسئل عن معارفه فى مدينة مصر ، فجاوب أنه لم يعرف أحدا ، وأكثر قعاده فى الجامع الأزهر ، وجملة ناس تعرفه وأكثرهم يشهدون فى مشيه الطيب(١٢) .

ارتاب الفرنسيون فى الأزهر وأدركوا المحرك الأساسى وراء ظواهر الأحداث ، وأخذ يفتشون عن العلماء ، واعتقلوا الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ أحمد العريشى قاضى مصر ، وحجزوهما حتى منتصف الليل .

---

١٠ ــ انظر : عجائب الآثار ٢ / ٢٥٠ .

١١ ــ انظر : المرجع السابق ٢ / ٢٧٤ .

١٢ ــ عجائب الآثار ٢ / ٣٦٢ .

وانتهت المحاكمة بإعدام سليمان الحلبى على الخازوق ، وقطع رءوس ثلاثة من مشايخه فى الأزهر ، ينتمون إلى إقليم غزه ، وهم محمد الغزى وعبدالله الغزى وأحمد الغزى .

٩ ــ أغلق الأزهر بعد تلك الحادثة ، وساد الذعر فى المدينة ، وهاجر كثير من العلماء والأعيان إلى الأقاليم ، وتبعتهم الجماهير الغفيرة ، حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة ، إلى إصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم ، وانذرت حتى لمن يرجع بعد خمسة عشر يوما نهب داره .

و يعلق الرافعى على ذلك فيقول « وانقضت تلك الأيام الثلاثه والفزع مخيم على القاهرة ، والناس تعتريهم الدهشه من تعاقب الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التى ظلت السنين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة فى لجة الهدوء والسكون » (١٣) .

١٠ ــ وتترتب حقيقة ثالثة عقب الحقيقتين السابقتين ، فقد ظهرت فى التاريخ العربى فئة ، كانوا يسمونها قديما « أهل الحل والعقد » وكانوا يسمونها خلال القرن التاسع عشر الميلادى « الفئة المستنيرة » .

١١ ــ ويخيل لى أن هناك فئات ثلاثا داخل التاريخ العربى : العامة ، أهل الحل والعقد ، الحاكم .

١٢ ــ ولابد من الضغط على كلمة « فئات » دون طبقات ، فالواقع أن تلك الفئات الثلاث بعيده عن معنى الطبقية بالمفهوم المعاصر ، التى تقوم على فكرة المصالح المادية وعلى التناقض الطبقى والذى يحل عن طريق الصراع .

إن هذه الفئات الثلاث تخضع لعقيدة دينية ، والكل مهيأ لاداء دوره الذى يسر له ، إنها مجرد أدوار أو وظائف فى ظل الصورة العامة ، وليست هناك حواجز طبقية ، فمن السهل للغاية أن ينتقل الفرد من فئه إلى فئه ، وأن تتغير وظيفته تبعا لدوره الجديد ، فمن السهل أن يتحول رجل من العامه إلى عالم مسموع الكلمة من الجانبين ، ومن السهل أيضا أن يتحول إلى حاكم ولو كان أعجميا ، فليس هناك تفضيل بين الشعوب والقبائل إلا بالتقوى .

١٣ ــ وحين تعمل هذه الفئات الثلاث فى انسجام تام ينتج الازدهار . ولكن قد يحدث انحراف بصورة ما فينتج الانحطاط .

والانحراف قد يتم بأن تضرب فئة أهل الحل والعقد ، وتمنع من أن تمارس دورها ، كما حدث من محمد على حين نفى عمر مكرم وأسقط هيبة العلماء .

---

١٣ ــ تاريخ الحركة القومية ٢ / ٢٠٧ .

وقد يتم الانحراف من فئة أهل الحل والعقد نفسها ، فتدلس دورها وتصبح أداة فى يد الطبقة الحاكمة ، وتقوم بتحذير العامة ، وصرفهم عما فى جوهر الدين من حرية وعدالة ومساواه .

وقد حدث هذا فى مراحل كثيرة من التاريخ العربى .

١٤ ـــ وربما كانت هذه الأنظومه الثلاثية (عامه ، علماء ، حكام) ، والمستمدة من واقع التجربة التاريخية ، هى أصلح الأنظمة ، لأنها تقوم على مفهوم وسطى ، بين العامة من ناحية ، والمستبد العادل ـــ وليس حتما أن يكون عادلاً ـــ من الناحية المقابلة .

وغلبه الأميه فى العالم العربى ، وانشغال العامه بضروريات الحياة ، وقوة الأجهزة الاعلامية التى تقوم بتغييب الوعى ، وسلطة الاعلان التى تعمل على تزييف الوعى ـــ كل هذا وغيره يؤكد صلاحية هذه الأنظومة ، و يبرز حتمية وجود فئة مستنيرة بين العامة والحاكم ، تتخلص من المشكلات اليومية ، وتتفرغ لوظيفتها ، وتقوم بدور التوعية لكلا الطرفين ، وتساعد على الوصول إلى القرار الصحيح .

١٥ ـــ ولكن لابد من الاجتهاد فى مفهوم معنى « أهل الحل والعقد » بحيث يتغير هذا المفهوم بتغير ظروف العصر والبيئة .

فقديما فهم الناس أن فئة الحل والعقد هم العلماء المتفقهون فى العلوم الدينية والشرعية والعربية .

وقد وقع كثير من الحركات الاصلاحية ، والتى قامت منذ بداية العصر الحديث وحتى الآن ، فى شرك هذا المعنى ، فانصرفت إلى علوم الدين ، وقامت على أكتاف المتمرسين بالعلوم الشرعية ، ولم تهتم بجانب ذلك بأهل الخبرة فى المجالات الأخرى ، ولم تنفتح على الانجازات الحضارية المعاصره .

لابد إذن أن يتسع مفهوم أهل الحل والعقد ، فيشمل أيضا علماء التكنولوجيا ، وأهل الخبرة فى مجالات العلوم المختلفة ، طبيعه وذرة وسياسة واقتصاد واجتماع ونفس ، وغير ذلك ممن تقوم عليهم دعائم الحضارة المعاصرة .

على أن تكون وظيفتهم أكبر من وظيفة المستشارين ، أنهم فى النهاية هم أصحاب القرار وصانعوه والحاكم هو المبلغ عنهم لفئة العامة ، والنائب عنهم فى التنفيذ .

١٦ ـــ وقد ظلت هذه الأنظومة الثلاثيه ، مره فى صورتها الصحية ، وأخرى فى صورتها المنحرفة ، تعمل إلى أن حلت محلها مايسمونه مجالس الشورى أو المجالس النيابية أو مجلس الشعب . وهى مجالس مستمدة من الديمقراطية الغربية ، منذ أن فكر إسماعيل باشا أن يجعل مصر قطعة من أوربا .

إن هـذه المجـالس تغلب فئة العامة ، أو الشعب ، أو الجماهير ، أو الطبقة السفلى ، أو الطبقة الدنيـا أو طبقة العمال ، لقد أصبحت كلمه « طبقة » ، تتردد مع هذا المفهوم ، وأصبحت هذه الطبقة ، أو ينبغى أن تكون ، هى صانعة القرار ، فى تقابل فئة العلماء وفئة الحكام .

ولكـن ظلت هذه الأنظمة الغربية متعثرة فى العالم العربى ، وتوقفت عن أن تؤدى دورها ، الذى أدته فى العالم الأوربى ، وتحولت إلى مجرد شكليه للمباهاة بالديمقراطيه والعصرية .

١٧ ــ وربما كـانـت فئة « أهل الحل والعقد » فى صورتها الصحية ، هى أقوى محور فى الأنظومة الثلاثية ، إنها تستمد سلطتها من مصدر دينى ، فلا سلطة للشعب ، ولا سلطة للحاكم ، ولكن السلطة للدستور الدينى .

فبـاسم الـديـن تـوجـه فـئـة العـامة وتدفعهم إلى واجباتهم ، و باسم الدين أيضا تراقب فئة الحكام ، وتمنع انحرافهم عن الأصول الرئيسية وتجتهد لهم فى المسائل الفرعية .

١٨ ــ ولكـن المؤرخين العـرب ــ أو الكثير منهم ــ ركزوا على فئة الحكام دون بقية الفئات ، فأخـذوا يـسـتـعـرضون إنجازاتهم ، و ينسبون العصور إليهم ، فهذا عصر معاوية ، أو عبد الملك بن مـروان ، أو هـارون الرشـيـد ، أو المأمـون ، أو الحاكم بأمر الله ، أو صلاح الدين الأيوبى ، أو بيبرس ، أو محمد على .

ومن هنـا تـغير مـفـهـوم الازدهار والانحطاط عند هؤلاء المؤرخين ، فعصر الازدهار هو العصر الذى يحقق فيه الحاكم انجازاته العسكرية أو السياسية أو الشخصية ، أو حتى العلميه التى تتم بتوجيه منه .

أما عصر الانحـطـاط ، فهو العصر الذى لا يحقق فيه الحاكم أو نائبه شيئا ، وكل ذلك بغض الـنـظـر عـن الاقـتـراب أو الابتعاد من الانظومة الثلاثية ، ومن أهم محور فيها ، فلم تعد حركات العـامـة يؤبه لها ، ولم تعد انجازات أهل الحل والعقد ذات بال يذكر ، أو ربما يذكر عرضا خلال الحديث عن عظمة الحاكم وتفتحه وسعة صدره .

١٩ ــ سبـق أن ذكـرت (رقـم / ١٣) أن عصر الازدهار ــ بمفهومه الصحيح ــ هو الذى يحقق فيـه الانسجام بين الفئات الثلاث . وأن عصر الانحطاط هو الذى يحدث فيه انحراف فى تشكيل الانظومة ، وخاصة فى فئة « أهل الحل والعقد » .

وأضـيـف الآن أن عصر الانحـطـاط لا يـعـنـى التشكيك فى الأنظومة ، ولكن يعنى توقفها إلى حين ، تترقب الظروف لكى تبرز من جديد ، إنها تظل كامنه كما يقول المناطقة .

إن الأنظومة (أو النظرية) لاتموت على أى حال ، إنها موجوده دائما . وقد يتحقق هذا الوجود بالفعل فيحدث مايسمى عصر الازدهار ، وقد يكون هذا الوجود بالقوة فيحدث مايسمى عصر الانحطاط .

إن الأنظومة تظل حتى فى عصر الانحطاط كامنة فى بطون الكتب ، وفى أروقة المساجد ، وفى أدمغة العلماء ، وفى أفئدة العامة .

إنها تترقب ، وتتحين الفرص ، لكى تبرز وتطل برأسها من جديد .

٢٠ ــ إنّ خلاصة معنى الازدهار بمنطق تلك الأنظومة ، هو حدوث الانسجام العام بين الفئات الثلاث ، والتأكيد على دور العلماء ، ثم تحقيق كل ذلك فى واقع فعلى ، يشمل شتى ظواهر المجتمع ، مايجرى فوق السطح ومايجرى تحته ، دون التركيز عما يجرى فوق السطح فقط (فئة الحكام) من مباهاة شخصية ، او استعراضات شكلية .

وخلاصة معنى الانحطاط :

هو أن يتوقف هذا الانسجام ، وأن تكف الأنظومة عن العطاء ، ولكنها لاتموت بل تظل كامنة تترقب .

٢١ ــ سقطت بغداد سنة٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، وقال المؤرخون إن العالم العربى قد دخل فى مرحلة الانحطاط ، وان هذه المرحلة قد امتدت إلى مايزيد عن خمسة قرون ، حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة١٧٩٨م وقالوا : حينئذ بدأ عصر النهضة ، أو البعث ، أو العصر الحديث .

ولكن لم يمض على سقوط بغداد خمسة أعوام ، إلا وولد ابن تيمية سنة ٦٦١هـ (١٢٦٢) ودعا إلى الجهاد والاجتهاد .

ولم تخمد دعوته ، حملها تلاميذه من بعده وخاصة ابن الجوزيه ، وظلت السلسلة متصلة الحلقات ، وقامت على أساسها الحركات الاصلاحية والدينية المعاصرة ، بدءا من الوهابية والشوكانى ، ومرورا بالسنوسية والمهدية ومحمد عبده .

إنّ النظرية لم تمت طيلة تلك القرون الطويلة ، بل ظلت تعمل مع سقوط بغداد وعقبه ، ومنذ ابن تيمه وبعده ، وأخذت تتشكل فى شخصيات وحركات واصلاحات ، وتتحين الفرصة لكى تبرز من جديد ، وتصبح حقيقة واقعية ، ومحققة فى مختلف ظواهر المجتمع ، فوق السطح وتحته ، كما تحققت من قبل ، وأوجدت مايسمى بعصر الازدهار الحقيقى .

وانّ مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر لايسمى نهضة أو بعثا أو عصرا حديثا ، إن النهضة ، أو بدايتها إن أردنا الدقة ، يجب أن نلتمسها فى ثورات العامة ضد تلك الحملة ، وفى حركات المقاومة

من فئة العلماء ، وفى دور الأزهر الشريف ، وفى الروح العامة التى شاعت فى المنطقة ، والتى استنفرت فريضة الجهاد المقدس ، ثم فى الحركات الدينية والاصلاحية .

والتى قامت على أساس من ابن تيمية ، ودعوته إلى الجهاد والاجتهاد ، والتى امتدت فى سلسلة متصلة الحلقات ، قبل الحملة الفرنسيه وأثناءها وبعدها .

٢٢ ــ لم يتفطن محمد على لكل هذه الحقائق ، فجاءت اصلاحاته ظاهرية ، تعبر عن مجد شخصى ، وعن طموحات عسكرية .

يقول المؤرخون إن عصر محمد على هو ازدهار ، فقد اقام امبراطورية مصرية ، وجعل القاهرة تنافس الأستانة ، وأنشأ جيشا قويا ، وأسطولا عظيما ، وشق القنوات والترع ، وأقام القناطر والجسور ، وقام بعدة غزوات فى الشام والسودان والحجاز والمورة ، وجعل من مصر امبراطورية يخشاها العالم الأوربى .

ولكن منطق النظرية يقول عكس ذلك ، ويرى عصره عصرا انحطاط ، فقد عمل فى مسار مخالف للنظرية ، أضاع هيبة العلماء ، حارب الوهابية ، أوجد بذور ثنائية التعليم .

وحين دفن دفنت معه إمبراطوريته للأبد .

٢٣ ــ وتفطن لكل هذه الحقائق رجل مثل الأفغانى ، هو لم يبن امبراطورية ، ولم يقم بغزوات ، ولكنه دعا إلى الإصلاح ، ومقاومة التيار الدخيل المتمثل فى الاستعمار .

يقول المؤرخون : فى عصر الأفغانى كان الاستعمار يخيم على المنطقة ، ولم يصلح معه جهود الأفغانى ، ثم يقولون : وانتهى الأفغانى واستطاع السلطان عبد الحميد أن يحبسه فى قفص من ذهب .

ولكن منطق النظرية يقول عكس ذلك تماماً ، ويرى أن الافغانى قد وضع بذور ازدهار حقيقية ، وإن دعوته قد تلقفتها سلسلة من تلاميذه : محمد عبده ، رشيد رضا ، سعد زغلول .. الخ .

إنه لم يمت بل لايزال حيا فى السلسلة الخالدة .

صعوبات أسلوبية فى كتاب سيبويه

أ. د. عبد الرحمن أيوب *

كان سيبويه فى كتابه يواجه صعوبتين أساستين أولاهما أن اللغة العربية لم تكن قد بلغت بعد المرحلة التى يمكن أن تعتبر فيها « لغة علم » وثانيتهما أنه كان أجنبيا اكتسب العربية بالتعلم . ومن ثم فقد كان يأتى فى أسلوبه العام وتعبيراته الخاصة أحيانا بما يأتى به الأجنبى — حين يكتب بالعربية من لف ودوران أو لجوء إلى تركيب أسلوبى ليس مألوفا للقارىء العربى . وسنحاول هنا أن نلقى الضوء على هاتين الصعوبتين من خلال النظر إلى عدد من النصوص التى اخترناها من كتابه ذاكرين أمثلة لهذا النوع أو ذاك من الصعوبات التى كانت تعترضه .

لغة الأدب ولغة العلم

ليس ثمة من شك أن اللغة العربية فى عهد سيبويه بل وقبله بقرون قد بلغت درجة من التطور - جعلتها لغة « أدبية » بكل ما فى هذا الوصف من معنى . والتعبير الأدبى بطبيعته يتميز بعدد من الأمور منها :

١ — الإيحاءات وظلال المعانى

٢ — قصد المعانى البعيدة دون المعانى المباشرة كما فى التورية والمدح بما يشبه الذم أو الذم بما يشبه المدح والتعريض والكناية والتلميح

٣ — القصد إلى الزخرف اللفظى كالجناس أو المعنوى كالمقابلة والتضاد

٤ — قبول الحشو الدلالى كالجمل المعترضة

---

* — أستاذ علم اللغة ووكيل كلية دار العلوم الأسبق .

٥ ـ النزوع عن المعنى المقصود كالنسيب فى أوائل قصائد المدح ، وحسن التخلص وغير ذلك ، هذه الافتعالات الفنية ترفضها لغة العلم ، كما ترفض أن تقبل كثيرا من الامكانيات التركيبية التى تبيحها اللغة العربية للتعبير عن معنى واحد ومن ذلك :

ـ عدم تطابق الموقع والموضع . ونحن نعنى بالموقع الموقع الإعرابى كالفاعلية أو المفعولية أو الحالية ونعنى بالموضع المكان الذى تتخذه كلمة فى موقع ما بالنسبة للكلمات التى تحتل مواقع اخرى فى نفس الجملة . والعربية تجيز مثلا

محمد قابل عليا فى الدار	قابل محمد عليا فى الدار
قابل عليا محمد فى الدار	قابل عليا فى الدار محمد
عليا محمد قابل فى الدار	فى الدار قابل محمد عليا
فى الدار قابل عليا محمد	فى الدار محمد قابل عليا

وهى جميعا تعبر عن معنى واحد .

وقد يدعى البعض أن التقديم إنما يقصد لمعنى التأكيد والاهتمام وأن التأخير يقصد لعكسها وأنها بذلك من وسائل الدقة فى التعبير التى تتطلبها لغة العلم . ونحن نقول بأن لغة العلم تقصد إلى الإخبار البسيط عن الواقع كما هو ، دون التورط الذاتى من جانب المخبر باهتمامه بهذا أو تأكيد ذاك .

تنصرف لغة العلم كذلك عن ظاهرة تعدد التراكيب الصرفية لنوع واحد من أنواع الكلمة . والعربية مليئة بهذا النوع من التعدد الذى أكسبها ولا شك ثراء أدبيا . ومن ذلك :

ـ صيغة البناء للمجهول « فُعِل » إلى جانب صيغة المطاوعة « انفعل » ونحن لا نرى فرقا ذا بال بين « كسر الغصن » و « انكسر الغصن » رغم ما يفتعله النحاة من دلالات جانبية للتفريق بينهما

ـ التعبير باسم الفاعل عما يعبر عنه المضارع فى مثل « محمد ضارب » و « محمد يضرب » . ولغة العلم المثالية تتطلب عدم تداخل الوظيفة التعبيرية لصيغة ما والوظائف التعبيرية لأخرى .

ـ يعبر فيها عن الحال والصفة بالمفرد المشتق أو بالجملة فتقول « جاء محمد راكبا » « وجاء محمد وهو راكب » « ورأيت رجلا راكبا » « ورأيت رجلا يركب » ، دون فرق معنوى ذى بال بين هذه وتلك . وهناك غير ذلك الكثير من التراكيب اللفظية والأسلوبية ، ومن الدلالات الجانبية أو العكسية . ولكن أخطر ما يعوق اللغة عن أن تكون لغة علم هو تعدد معانى اللفظ الواحد ، وهو عيب تتخلص منه لغة العلم باستعمال ما يسمى بالمصطلحات ، وهى ألفاظ تتعين مفهوماتها بالتعريف أو بالوصف .

هذا وليس فى العالم لغة واحدة يمكن أن تعتبر لغة علمية بهذا المعنى الدقيق . والمسألة نسبية فمن اللغات مايقل التعقيد فى قواعدها من جهة بعينها كالإنجليزية إذا ماقورن تصرف أفعالها بتصرف الأفعال فى العربية أو الفرنسية . ومنها ما قد تكون أكثر من سواها تحديدا لمعنى من المعانى كالإنجليزية التى تفرق بين الوطواط والفأر وتسمى الأول وتسمى الثانى بينا تطلق الالمانية عليها كلمة « » أى فأر، وتميز إحداهما عن الاخر بالصفة وهكذا .

هذا وقد انطاعت العربية فى العصر الحديث لضرورات التعبير العلمى . وأصبح الأسلوب العلمى العربى خاليا من الحشو والإطالة والزينة اللفظية والمعنوية ، وهذا تطور جديد لم تكن العربية قد وصلت إليه على عصر سيبويه . وهذا لا يعنى أن العربية لم تستعمل فى التأليف قبل سيبويه . ولكن ما ألف فى هذا الحين كان من نوع الرواية التى تعتمد على سرد الخبر او نقل النص أو ذكر الأحكام ، ولم تكن لغة تحليل علمى بالمعنى الذى نفهمه اليوم . و يعتبر كتاب سيبويه فى نظرنا أول كتاب حاول التحليل العلمى فى مجاله الخاص .

وسنعالج الآن نصوصا من كتاب سيبويه محاولين توضيح ما ادعيناه فى صدر هذا المقال .

التبويب والعناوين

يبدأ العمل العلمى يجمع طائفة من الحقائق التى تمثل جزئيات لموضوع ما . هذه الجزئيات تقسم إلى أنواع طبقا لصفات مشتركة بينها . و يقسم المؤلف عمله العلمى إلى مجموعة من الأبواب يتحدث فى كل باب منها عن نوع معين من الأنواع المذكورة . و يضع لكل باب عنوانا ، يفترض أن يكون نصا مركزا يفهم منه بالاصطلاح مضمون الباب .

والأبواب والعناوين بهذا المعنى لم تكن تقليدا من تقاليد العربية فى عصر سيبويه . والى القارىء طائفة من عناوين سيبويه .

جـ ١ ص ٧ « هذا باب المسند والمسند إليه » هذا عنوان جيد ، فهو مركز يعبر بدقة عن مضمون الباب ، وخاصة وأن سيبويه قد ذكر تعريفا لكل من المسند والمسند إليه بعد العنوان مباشرة .

جـ١ ص٧ « هذا باب اللفظ للمعانى » هذا العنوان جيد من حيث الشكل فهو مركز مختصر وهو لا يتصل اتصالا أسلوبيا بالنص ، إذ أن العبارة التى بعده هى « اعلم أن من كلامهم الخ » وهى عبارة تستقل تركيبيا عن العنوان . ولكن عيب هذا العنوان هو أنه لا يفهم شيئا . وقد يكون السبب هو أنه قد استعمل اللام بمعنى غير مألوف فى العربية قد يكون مألوفا فى لغة سيبويه الأصلية .

والمعروف أن الجار والمجرور إذا كان خبرا ولم يذكر متعلقه فى الجملة فإن متعلقه يكون الكون المطلق (أو الوجود) .

وبهذا يكون معنى عبارة « اللفظ للمعانى » هو « اللفظ موجود للمعانى » . والذى يريده سيبويه كما يفهم من النص الذى بعد العنوان هو تعدد المعانى للفظ الواحد او تعدد الالفاظ لمعنى واحد . وكان عليه أن يضع عنوانا ينص على هذا نصا صريحاً .

جـ ١ ص ١٣ هذا باب الفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعوله ، والمفعول الذى لم يتعد اليه فعل فاعل ولا تعدى فعله إلى مفعول آخر ، ومايعمل من أسماء الفاعلين والمفعولين عمل الفعل الذى يتعدى إلى مفعول ، ومايعمل من المصادر ذلك العمل ، ومايجرى من الصفات التى لم تبلغ أن تكون فى القوة كأسماء الفاعلين التى تجرى مجرى الفعل المتعدى الى مفعول مجراها ، وما أجرى مجرى الفعل وليس بفعل يقوى قوته ، وماجرى من الأسماء التى ليست بأسماء الفاعلين التى ذكرت لك ، ولا الصفات التى هى من لفظ أحداث الأسماء و يكون لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يمض ، وهى التى لم تبلغ أن تكون من القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التى تريد بها ماتريد بالفعل المتعدى إلى مفعول مجراها ، وليست لها قوة أسماء الفاعلين التى ذكرت لك ولا هذه الصفات كما أنه لايقوى قوة الفعل ماجرى مجراه وليس بفعل .)

لو أقتصر العنوان على « باب الفاعل » وانفصل أسلوبيا عن النص التالى له لكان عنوانا مثاليا ولكن الذى حدث أنه على وضعه فى الكتاب جزء لاينفصل عن النص الذى بعده .

ونلاحظ أن النص ذاته ليس من عناوين من موضعات متعددة وليس فيه أحكام تتعلق بهذا الموضوع أوذلك . وبهذا فنحن لسنا أمام باب من أبواب كتابه ، بل إننا فى الحقيقة أمام فهرس لعدد من الأبواب سيذكرها فيا بعد . ووضع الفهارس من أهم مميزات العمل العلمى الحديث ، حيث توفر على القارىء وقته الذى يضيعه فى البحث عن نقطة بعينها هى موضوع اهتمامه . وسيبويه هنا فى الواقع يبدأ تتليدا علميا جديدا .

ولكن فهرس سيبويه هذا غير شامل لجميع الأنواع التى درسها فى كتابه أو فى أحد أجزائه . ومن ثم فقد ضاعت الفائدةالتى كانت ترجى منه وقد شمل هذا الفهرس الموضوعات التالية :

(١) الفاعل الذى لم يتعد فعله إلى مفعول ... الخ ص ١٤

(٢) مايعمل من أسماء الفاعلين والمفعولين عمل الفعل ... ص ٨٢

(٣) مايعمل من المصادر ذلك العمل ص ٩٧

(٤) مايعمل من الصفات ... ص ٩٩

(٥) ما أجرى مجرى الفعل ليس بفعل ... الخ

(٦) ما أجرى من الأسماء التى ليست بأسماء فاعلين

وهذان الموضوعان (رقم ٥ ، ٦) لايمكن لنا بالتحديد ذكر الصفحات التى عولجا فيها نظرا لعدم وضوح مايقصد سيبو يه بها : هل يقصد اسم الفعل أم هل يقصد الجمل التى يرى أنها تعمل عمل الفعل فى مثل (لله دره فارسا) حيث يقول بأن « لله دره » هى التى نصبت « فارسا »

وقد استغرق الموضوع الأول مايقارب ستين صفحة لأنه لم يقتصر على موضوع الفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعول ، بل لقد فصل سيبو يه وأطال وعالج موضوعات متعددة مثل ، الفعل الذى ينصب مفعولين ليس أصلها مبتدأ وخبرا والذى ينصب مفعولين أصلها مبتدأ وخبر والفعل الذى ينصب ثلاثة مفاعيل من أى النوعين ، والحال وظن وأخواتها والإخبار بالنكرة عن النكرة واستتار الضمير فى ليس .. الخ . وكل هذه موضوعات كان ينبغى أن تذكر فى الفهرس بالتفصيل .

وإذا كان الغموض من عيوب عناو ين سيبو يه فإن هناك عيبا آخر فيها هو الطول . ولنرجع بالقارىء إلى العنوان السابق « هذا باب الفاعل الذى لم يتعد فعله ... الخ » وستجد أن سبب طول هذا العنوان هو عدم استعمال المصطلح العلمى وذكر جميع الصفات والأحكام الخاصة بالمفهوم الذى يتحدث عنه على سبيل الاستطراد لتوضيحه . لنأخذ هذا العنوان ولنضع طائفة من المصطلحات مكان عباراته هكذا :

لو وضعنا هذه المصطلحات محل العبارات المفسرة لها وحذفنا ما فى العنوان من حشو لكان العنوان هكذا :

« هذا باب فاعل اللازم ونائب الفاعل الذى يأخذ فعله مفعولا واحدا ومايعمل عمل الفعل من أسماء الفاعل والمفعول والمصدر والصفات المشبهة والأسماء التى ليست بأسماء فاعل أو مفعول وليست وصفا مشتقا » .

وسنجد أن سيبو يه قد ارتكب محظورا أسلوبيا تنفر منه العربية هو الفصل الطو يل بين الفعل ومفعوله المطلق

وقد حدث هذا فى العبارة

« مايجرى من الصفات التى لم تبلغ أن تكون فى القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التى تجرى مجرى الفعل المتعدى إلى مفعول مجراها .

وفى العبارة « وما جرى من الأسماء التى ليست بأسماء الفاعلين التى ذكرت ولا الصفات التى هى من لفظ أحداث الأسماء و يكون لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يمض وهى التى لم تبلغ أن تكون فى القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التى تر يد بها ما ير يد بالفعل المتعدى إلى مفعول مجراها .

وكان من الممكن أن يستعمل سيبويه المصطلح و يتجنب الاطالة ولكن عذره أن استعمال المصطلحات لم يكن بعد تقليدا اسلوبيا علميا عربيا . ومع هذا فقد كان من الممكن لسيبويه ان يتجنب هذا العيب باعادة ترتيب عباراته هكذا .

« والصفات التى تجرى مجرى أسماء الفاعلين والمفعولين فى عملها عمل الفعل وليس لها قوتها » وماجرى من الأسماء مجرى أسماء الفاعلين والمفعولين فى العمل عمل الفعل المتعدى وهذه الأسماء ليست أسماء الفاعلين أو المفعولين أو الصفات التى اخذت من لفظ احدث الاسماء... الخ

فى عبارة ولا « هذه الصفات » هذه الصفات معطوفة على أسماء الفاعلين وكان من الأنسب أن يعيد المضاف معها فيكون « وليس قوة اسماء الفاعلين ولا قوة هذه الصفات » .

جـ١ ص ٢٠

(هذا باب مايعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل وليس بمفعول كالثوب فى قولك « كسوت الثوب » وفى قولك « كسوت زيدا الثوب » و يكون معناه ثانيا كمعناه أولا إذا قلت « كسوت الثوب » وكمعناه إذا كان بمنزلة الفاعل اذا قلت « كُسِى الثوب » . وذلك قولك « ضربت عبدالله قائما » وذهب زيد راكبا)

— فى عنوان الباب نفس العيب الذى ذكرناه من قبل . وهو اتصاله بالنص .

— العيب الجديد الذى نلاحظه هو أن سيبويه وقد عقد الباب للحال « لم يمثل للحال بعد العنوان بل مثل لما ليس بحال » . والمثال الذى بعد القوس ــ أى بعد العنوان ــ هو مثال للمفعول فى جملتى كسوت الثوب وكسوت زيدا الثوب . أما مثالا الحال فقد جاء بعد ذلك بأربعة اسطر .

— كذلك لم يتحدث سيبويه فى الباب صراحة عن أحكام الحال بل تحدث عن أحكام أنواع تخالف الحال . وهكذا أصبح على القارىء أن يستخلص أحكام الحال بمفهوم المخالفة من أحكام الأنواع التى ذكر أنها ليست بحال هكذا .

— المفعول قد يكون معرفة ومقتضى مخالفة الحال له ألا يكون الحال معرفة بل نكرة .

— إذا غيرنا ترتيب الكلمات فى جملة ذات مفعولين ووضعنا المفعول الثانى مكان المفعول الاول ظل معنى المفعولية ثابتا له رغم تغير موضوعه . وكذلك إذا حذفنا الفاعل وأخذت الكلمة التى وقعت مفعولا محله و بنى الفعل للمجهول فإن معنى المفعولية يظل ثابتا للكلمة . ومفهوم المخالفة أن الكلمة التى وقعت حالا لو أخذت موقع المفعول أو نائب الفاعل فانها لاتحتفظ بمعنى الحالية .

مثال المفعول « كسوت محمدا الثوب » و« كسوت الثوب محمدا »

« كسوت الثوب » « وكُسِي الثوب »

ومعنى المفعولية ثابت للثوب سواء كان مفعولا ثانيا أو مفعولا أول أو نائب فاعل .

ومثال الحال « أهديت محمدا الثوب جديدا » . « أهديت محمدا جديدا » « وأهدى جديد » . ولفظ « جديد » قد تغير معناه حين انتقل من الحالية إلى المفعولية أو إلى نيابة الفاعل . وهذا لا يحدث بالنسبة للمفعول .

قوله « لأن الثوب ليس بحال وقع فيها الفعل ولكن مفعول كالأول » خلل تنبغي الإشارة إليه . ذلك أن هذه العبارة تشير إلى كلمة الثوب في مثالين ، واحد منهما فقط يحتوى على مفعولين . وبالتالي فقد كان عليه أن يخص التعليق « لأن الثوب ليس بحال الخ . » بالمثال الثاني « كسوت زيدا الثوب » .

قوله « ويكون معناه ثانيا كمعناه أولا إذا قلت كسوت الثوب وكمعناه إذا كان بمنزلة الفاعل « صادقة ولا شك على المفعول ولكن نقيضها لا ينطبق على الحال إلا إذا تجرد عن الحالية وصار مفعولا . ولما كان الغرض من الحديث عن المفعول أن نستنبط بمفهوم المخالفة أحكام الحال فإ هذه العبارة لا لزوم لها ، لأن الكلمة التي كانت حالا في تركيب ثم صارت مفعولا في تركيب آخر هي نفس الكلمة من الناحية القاموسية ، أما من الناحية التركيبية فهي نوع آخر وكلمة « جديد » التي ذكرت في الأمثلة السابقة هي نفس الوحدة القاموسية في « كسوت محمدا الثوب جديدا » وفي « كسوت محمدا جديدا » وفي « كسى جديد » ولكن نوعها النحوى يختلف من حال إلى مفعول إلى نائب فاعل . ولقد كان من الممكن أن يذكر سيبويه أحكام الحال بشكل مباشر دون إقحام المفعول وغير المفعول

قوله (فلو كان بمنزلة المفعول الذى يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ما جاز في ذهبت ولجاز أن تقول ضربت زيدا أباك وضربت زيدا القائم لا تريد بالأب ولا بالقائم الصفة ولا البدل)

استعمل سيبويه عبارة بمنزلة الفاعل للإشارة إلى موقع نائب الفاعل أى أن هناك موقعا نحويا اسمه « الفاعل » وموقعا نحويا آخر اسمه « منزلة الفاعل » أوما سماه النحاة المتأخرون باسم « نائب الفاعل » . هذا سليم ومقبول . ولكن الشيء الذى لا يقبل هو استعماله عبارة « بمنزلة المفعول » ليعنى بها موقع المفعول . ولسنا ندرى لماذا يضع مصطلحين اثنين لمفهوم واحد وهما « المفعول » و « منزلة المفعول » وكان من حقه أن يكتفى بمصطلح « المفعول » فيقول (فلو كان مفعولا يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ما جاز في ذهبت) . وفي ذيل هذه العبارة عيوب :

أولها استعمال الفعل « ذهبت » مع أن الصيغة التي استعملت في أحد المثالين السابقين

هى « ذهب » . ومادام سيبويه يشير إلى مثال بعينه فقد كان عليه استعمال الفعل بالصيغة التى ورد بها المثال . وبالتالى كان عليه أن يقول « ماجاز فى ذهب » .

وثانيها أن جدل سيبويه هنا لاينصب على المثالين ، لأنه لوصح أن قلنا بأن قائما فى الجملة « ضربت عبد الله قائما » تصلح مفعولا إذا حذف عبد الله وحلت محله ، فإننا لانستطيع أن نقول مثل هذا القول بالنسبة للجملة « ذهب زيد راكبا » لأن الفعل ذهب لاينصب مفعولا ، وبهذا فإن عدم إمكان كون « راكبا » مفعولا هنا يكون بالضرورة للزوم الفعل

ثالثها أن سيبويه لم يعبر صراحة عما يريد أن يقول بل لقد لجأ كذلك إلى ترك الأمر للقارىء ليفهم مراده بالاستنباط . وقد كان من الممكن له أن يضع القضية هذا الوضع . لوكان الحال من المفعولات لما جاز المثال (ذهب زيد راكبا لأن ذهب فعل لازم لاينصب المفعول)

قوله (فالاسم الأول المفعول قد حال بينه وبين الفعل فى ذهب أن يكون فيه بمنزلته كما حال الفاعل بينه وبين الفعل فى ذهب أن يكون فاعلا)

فى الجزء الأول من هذه العبارة اسم ظاهر مفرد مذكر وبعده خمسة ضمائر مذكرة مفردة لاتعود كلها عليه ، بل يعود بعضها كما يفهم من السياق إلى اسم الموصول « ما » الموجودة فى العنوان قبل هذا النص بسبعة أسطر . واستعمال هذا العدد من الضمائر مع بعد أحد العائدين يؤدى إلى صعوبة فى الفهم وإلى تعدد الاحتمالات التى يمكن أن تفهم عليها العبارة . هكذا

(١) حال المفعول بين الحال وبين الفعل فى ذهب أن يكون الحال فى الفعل (أى بالنسبة للفعل) بمنزلة المفعول (أى مفعولا) .

(٢) حال كون « الحال » بين المفعول وبين الفعل أن يكون المفعول من الفعل بمنزلة الحال . الخ

والاحتمال الأول هو مايقصده سيبويه : ولو استعمل الأسماء الظاهرة مكان الضمائر لكانت عبارته واضحة يسيرة .

وماقلناه هنا يقال أيضا بالنسبة لبقية الاقتباس « كما حال الفاعل بينه وبين الفعل فى ذهب أن تكون فاعلا » فقد كان الأولى أن يستعمل الأسماء الظاهرة فتكون العبارة أكثر وضوحا هكذا « كما حال الفاعل بين المفعول وبين الفعل عن أن يكون المفعول فاعلاً »

قوله « وكما حالت الأسماء المجرورة بين مابعدها وبين الجار فى قولك « لى مثله رجلا » « ولى ملؤه عسلا » . وكما منعت النون فى عشرين أن يكون مابعدها جرا أذا قلت « له عشرون درهما »

نحن لانوافق على فكرة حيلولة كلمة فى موقع مابين هذا الموقع وبين كلمة فى موقع آخر أن تقع فى الموقع الأول . وذلك لأنه لوجاز تغير الموقع لكان معنى هذا ، اختلاف التركيب اختلافا تاما . وعلى سبيل المثال فإن الجملة ، ذهب زيد راكبا « لاتتحول إلى » ذهب راكبا « بسقوط زيد » إذ إن الجملة الثانية ليست نتيجة تغير فى الجملة الأولى ولكنها جملة أخرى تخالفها فى

التركيب وإن شابهتا فى الألفاظ ، الأولى من فعل وفاعل معرفة وحال نكرة ، والثانية من فعل وفاعل نكرة . وبهذا المعنى لايمكن المقارنة بينهما .

أما أن النون فى « عشرون » قد منعت الاسم الذى يليها عن أن يكون مجرورا ، فهذا مرفوض من أساسه . وذلك أن النون فى « عشرون » جزء من الكلمة لايسقط . ان المانع من الجر هو أن كلمة « عشرون » كلها لاتضاف كما أن كلمة « هو » لاتضاف فكما لايصح أن يقال « هو على » بالإضافة فكذلك لايمكن يقال « عشرون درهم » ولن يصح رأيه إلا إذا كان من الممكن أن تقول (عشرو درهم)

قوله (فعمل الفعل هذا فيما يكون حالا كعمل « لى مثله » فيما بعده . ألا ترى أنه لايكون إلا نكرة كما أن هذا لايكون إلا نكرة . ولو كان هذا الحال بمنزلة الثوب فى كسوت لما جاز ذهبت راكبا لأنه لايتعدى الى مفعول كزيد وعمرو . وإنما جاز هذا لأنه حال وليس معناه كمعنى الثوب وزيد فعمل كعمل غير الفعل ولم يكن أضعف منه إذ كان يتعدى الى ماذكرت من الأزمنه والمصادر ونحوه) .

(أ) ليس فى هذا الجزء كله مفهوم جديد فكل ما قيل فيه مجرد تكرار لما قيل من قبل .

(ب) اسم الاشارة « ههنا » يشير إلى باب الحال كله . ومن ثم فلا لزوم لاستعماله وكان يكفى أن يقول « فعمل الفعل فيما يكون حالا » . وذلك حتى لايوهم استعمالها وجود طريقتين لعمل الفعل فى الحال ، طريقة ههنا حيث يعمل عمل « لى مثله » وطريقة فى مكان آخر حيث يعمل عملا آخر .

(جـ) من الأوضح استعمال الاسم الظاهر مكان الضمير هكذا « لما جاز ذهبت راكباً » لأن الفعل ذهبت لايتعدى إلى المفعول .

(د) عبارة (فعمل كعمل غير الفعل ولم يكن أضعف منه) فيها بدورها مشكلة استعمال الضمير بدلا من الاسم الظاهر . إنه يعنى أن « الفعل اللازم » ذهب نصب الاسم ، « راكبا » مع أنه لاينصب المفعول ، كما نصبت الجملة الاسمية « لله دره » اللفظ « فارسا » على التمييز . وبالرغم من أن الفعل اللازم عمل عمل غير الفعل ، فإنه ليس أضعف من الفعل » السؤال هنا هو كيف يكون الفعل اللازم أضعف من الفعل مع أنه فعل ، إن سيبويه يعنى أن الفعل اللازم « ذهب » ليس أضعف من الفعل المتعدى إلا فى عدم نصبه المفعول ، لانه ينصب ظرف الزمان والمفعول المطلق وسواهما . وقد كان عليه إن يذكر صراحة ان المقارنة بين الفعل اللازم والفعل المتعدى دون إقحام الجملة الاسمية فى هذا الجدل .

ولنا سؤال أخير: هل يعتبر سيبويه نصب الحال من عمل الفعل ؟ الجواب بالإيجاب . ودليلنا عنوان الموضوع الذى هو « هذا باب لما يعمل فيه الفعل وهو الحال » .
كيف يقول إذن بأن « ذهب » حين نصب « راكبا » قد عمل عمل غير الفعل ؟ أو لم ينصب الفعل المتعدى « ضربت » فى مثاله « ضربت عبد الله قائما » الحال كما نصب الفعل اللازم « ذهب » الحال فى المثال « ذهب زيد راكبا » ؟

جـ٢ ص ٣١٥

(هذا باب ما لحقته الزوائد من غير الفعل)

نلاحظ أن سيبويه كثيرا ما يستعمل أسلوب النفى لشرح مخالفه المثبت وهو يقصد ههنا « هذا باب المزيد من الصفات والأسماء »

والتعبير بأسلوب النفى هنا لا يوقع فى مشكل . ولكنه كثيرا ما يسبب غموض العبارة كما سترى . يقول بعد هذا فى نفس الموضع :

(ما قيس من المعتل الذى لا يتكلمون به ولم يجىء إلا نظيره فى غير بابه)

ما هو هذا المعتل الذى لا يتكلمون به ؟ ثم كيف يكون النظير من غير بابه ؟ اللهم إلا أن يكون التناظر فى أمر لم يبّينه سيبويه .

قد يفسر مقصوده ما جاء فى نهاية الباب (ولا نعلمه جاء صفة إلا حرف من المعتل يوصف به الجماع (يعنى الجموع) وذلك قولهم عدى ، ولم يكسر على عدى واحد) هنا يعبر بأسلوب النفى كذلك ثم الاستثناء . وكان من الأبسط أن يستعمل صيغة الايجاب هكذا « لم يجىء وصف معتل الا ما يوصف به الجمع مِمّا ليس جمعا لمفرد ولكن معناه كمعنى الجمع وذلك مثل عدى » وهى اسم جمع مثل « الركب » وفى نهاية عبارته تعبير آخر بأسلوب النفى هو « لم يكسر على عدى واحد » والصعوبة هنا أن « واحد » يحتمل أن تكون صفة لعدى السابقة عليها أو نائب فاعل . وهو ما نظن أنه يقصده .

جـ١ ص ٣

إلا أنها ضارعت الفاعل لاجتماعهما فى المعنى وسنرى ذلك فى موضعه ولدخول اللام .. الخ

هنا فصل بين المتعاطفين والأولى أن تعاد صيغة العبارة هكذا « إلا أنها ضارعت الفاعل لدخول اللام فيها ولاجتماعهما فى المعنى وسترى ذلك فى موضعه »

حـ١ ص ٥

(فلما كان حال يفعل فى الواحد غير حال الاسم وفى التثنية لم يكن بمنزلته فجعلوا إعرابه فى الرفع ... الخ)

يقصد أن المضارع عند الإفراد والتثنية مخالف للاسم حيث أنه يتطلب فاعلا وعلامة إعراب على العكس من الاسم الذى يتطلب علامة الإعراب دون فاعل . ومن هنا

لا يكون المضارع بمنزلة الاسم فتكون ألف التثنية علامة الإضمار والنون ثبوتا أو عدما علامة الإعراب . وبهذا التفسير تكون « وفى التثنية » عطفا على « فى الواحد » وتكون الفاء فى « فجعلوا » لإفادة الترتيب والتعقيب ولهذا فمن الأنسب أن تكون العبارة هكذا :

« فلما كان حال يفعل فى الواحد وفى التثنية غير حال الاسم لم يكن بمنزلته فجعلوا ... الخ »

جـ ١ ص ٥

(واعلم أنك إذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان الأولى منها حرف المد واللين وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون تكون فى الرفع ألفا ولم تكن واوا ليفصل بين التثنية والجمع الذى على حد التثنية وتكون فى الجرياء مفتوحا ما قبلها ، ولم يكسر ليفصل بين التثنية والجمع الذى على حد التثنية . و يكون فى النصب كذلك ولم يجعلوا النصب ألفا ليكون مثله فى الجمع ، وكان مع هذا أن يكون تابعا لما الجر منه أولى لأن الجر للاسم لا يجاوزه ، والرفع قد ينتقل إلى الفعل فهذا أغلب وأقوى . وتكون الزيادة الثانية نونا كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين وهى النون وحركتها الكسر)

العيب الأسلوبى الواضح فى هذا النص الاستطراد بذكر أحكام فرعية لأطراف القضية التى يعرضها ، بحيث يكون من العسير الإلمام بالقضية نفسها . وسنحاول فيما يلى اعادة كتابة هذا النص مع ترتيب أجزائه بحيث نتفادى هذا الاستطراد وسيستطيع القارىء بعد هذا إدراك ما نقول « واعلم أنك إذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان الاولى منها حرف الإعراب والثانية نون مكسورة . و يكون حرف الإعراب فى الرفع ألفا وفى الجرياء مفتوحا ما قبلها و يكون فى النصب كذلك ولم يكن حرف الإعراب فى الرفع واوا حتى يفصل بين التثنية والجمع الذى على حد التثنية . ولم يكن فى النصب ألفا حتى يكون مماثلا للنصب فى الجمع (السالم) وحتى يناظر علامة الجر وسبب تفضيل هذا التناظر أن الجر خاص بالإسماء فهو أغلب وأقوى . .

قوله « وتكون الزيادة الثانية نونا .. وهى النون »

هما تكرار لا لزوم له . وقد كان من الأيسر أن يكون النص « وتكون الزيادة الثانية نونا مكسورة كأنها .. » كما أنه من الممكن أن يبقى التكرار مع إزالة العيب باستعمال اسم الإشارة هكذا « وتكون الزيادة الثانية نونا .... وهذه النون حركتها الكسرة »

قوله « ولم يجعلوا النصب ألفا ليكون مثله فى الجمع » الضمير فى « مثله » يوهم أن يكون عائدا على الاسم المثنى لأن ضمير « النصب » مستتر فى يكون اسمًا لها والأفضل استعمال الاسم الظاهر هكذا « ليكون مثل النصب فى الجمع »

قوله « الأولى منها حرف المد واللين وهو حرف الإعراب ... تكون فى الرفع ألفا ولم تكن واوا .. وتكون فى الجرياء مفتوحة ولم تكسر ... »

الذى يكون ألفا فى الرفع و ياء فى النصب والجر هو حرف الإعراب لا الزيادة.
وهذه الزيادة بهذا المعنى جنس يندرج تحته نوعان، زيادة الرفع وهى الألف وزيادة النصب والجر وهى الياء. وبهذا المعنى فان من الأنسب استعمال « يكون » و « لم يكن » لأن المتغير هو الحرف لا الزيادة باعتبار دقيق. وعلى فرض قبول استعمال ضمير المؤنث فى الفعلين فإننا نأخذ على سيبويه استعمال ضمير المذكر « ولم يكسر » لأن هذه الضمائر تعود على أمر واحد.

قوله « وكان مع هذا أن يكون تابعا لما الجر منه أولى »

« مع هذا » فى عربيتنا المعاصرة قد تعنى « رغم هذا ». ولست أدرى إذا ما كان هذا الاحتمال قائما فى العربية المعاصرة لسيبويه والمقصود هنا « بالاضافة لهذا ». وهذا التعبير فى مجمله (كان مع هذا أن يكون) غير عربى. و يبدو أنه من تأثير لغة سيبويه الأم.

جـ ١ ص ٥

(واعلم أن التثنية اذا لحقت الأفعال المضارعة علامة للفاعلين لحقها الف ونون)

كان من الأفضل ألا يستعمل الفعل « لحق » مرتين لأن هذا يوهم دخول لاحقتين التثنية والألف والنون. و يزيد هذا الاحتمال وقوع لحقت فعلا للشرط ولحقها جوابًا له. وفعل الشرط مختلف عن جوابه.

ـــ قوله « علامة للفاعلين » « تعرب علامة » حالا من التثنية. والتثنية ليست علامة للفاعل (اى ضميرا له) وعلامة الفاعل هى الألف. ولهذا فالعبارة مختلة وصوابها

« واعلم ان الافعال المضارعة تلحقها ألف ونون علامة للفاعلين .... »

جـ ١ ص ١٩٧

« هذا باب ما ينتصب فيه الاسم لأنه حال يقع فيه السعر وأن كنت لم تلفظ بفعل ولكنه حال يقع فيه السعر فينتصب كما انتصب لو كان حالا وقع فيه الفعل لانه حال وقع فيه أمر).

استعمال الفعل « يقع » بالنسبة للفعل مقبول لتجدده أما بالنسبة للسعر وهو غير متجدد فقد الأولى أن يستعمل كان التامة هكذا.

هذا باب ما ينتصب فيه الاسم وهو حال يكون فيه السعر، و بدون تكرار لعبارة لحال يقع فيه السعر

جـ ١ ص ١٩٩

(هذا باب ما ينتصب من الأسماء والصفات لأنها أحوال يقع فيها الأمور وذلك قولك هذا بسرا أطيب منه رطبا ... وانما قال الناس هذا منصوب على اضمار « اذا كان » فيما

يستقبل و « اذا كان فيا مضى لان ذا لما كانت بمعنى ذا اشبه عندهم ان ينتصب على « اذا كان » و « اذ كان »)

قوله « لأن ذا لما كان معناه ذا اشبه عندهم ... الخ » . ترى هل بلغ سيبو يه من السطحية بحيث يقرر أن « إذا » بمعنى « ذا » ؟

لقد خانت سيبويه هنا عبارته وصح منطقة ، وهو يقصد الاشارة بذا الاولى الى « إذا » والثانية الى « اذ » او بالعكس . وفى هذه الحالة كان ينبغى أن يقول لأن « ذا » فى « اذا » لما كان معناه « ذا » فى « اذ » ..الخ « أو» لان ذا لما كان معناه ذاك « ...الخ » اما منطقة فاننا سنبينه رغم انه ليس من هدف هذا المقال .

يبدو لى أن سيبو ية يرى اشتراك « اذا » فى الاصل التاريخى « ان ذا » وان عنصر الشرط مستفاد من « ان » والاشارة من « ذا » وقد تطور هذا المركب اللفظى الى « اذا » بادغام النون فى الذال وفقد التشديد الناتج من الاغام ، وتطور الى « اذ » بهذه الطريقة مع فقدان الفتحة الطويلة الاخيرة ثم تخصصت احدى الصورتين للشرط فى الماضى والاخرى للمستقبل . و بالتالى فهناك شبه فى الشرط ادى الى توهم انها اداة واحدة ذات معنيين (لاحظ قوله اشبه عندهم) وهذا التوهم يؤدى الى ظاهرة « محاكاة النظير» analogy وبمقتضاها تحاكى الجملة جلة « اذ » فى المضى وتحاكى « اذا » فى الاستقبال .

اما الفرق بين سيبو يه و « الناس » ، فأنهم يقولون بنصب « بسرا » باعتبارها خبرا لكان المحذوفة بتقدير « هذا اذا كان بسرا أطيب » او « هذا اذ كان بسرا أطيب » و يرفض سيبو يه هذا التأو يل لانه لو كان صالحا مع « بسرا » النكرة فانه ينبغى ان يكون صالحا كذلك مع المعرفة « البسر » وذلك لصلاحية خبر كان لان يكون معرفة اذا صلح نكرة . ولكن استعمال « البسر » لم يرد فى هذا المثال مع النصب ، و بالتالى فلا يصلح اعتبارها خبرا لكان واذا امتنع هذا امتنع نظيره وهو اعتبار النكره خبرا لكان المحذوفه . والامكانية الباقية هى نصب « بسرا » على الحالية وهى موقع يقتضى تنكير الاسم والخلاصة ان هناك رأيين :

(١) رأى « الناس » وهم يقولون بالنصب خبرا لكان المحذوفة

(٢) رأى سيبو يه وهو يقول بالنصب على محاكاة خبر كان او يكون ، فى المثالين « هذا أطيب اذا كان بسرا منه اذا كان رطبا » فى الاستقبال و « هذا أطيب اذ كان بسرا منه اذ كان رطبا » فى المضى وذلك بدون تقدير كان او يكون .

جـ ١ ص ١٥٩

« هذا باب اختلاف العرب فى تحريك الاخر لانه لا يستقيم هو والاول من غير اهل الحجاز»

(١) العيب هنا هو الفصل بين الصفة والموصوف فصلا طويلا والادق ان تكون العبارة هكذا « هذا باب اختلاف العرب من غير أهل الحجاز ... الخ »

جـ ١ ص ٢٧٨

(فالمبتدأ الأول والمبنى ما بعده عليه) الادق ان يُقال « والمبنى عليه ما بعده »

جـ ٢ ص ٣٣٥

(تقول فعلول نحو بهلول فالياء تشرك الواو فى هذا الموضع والالف فى حلتيت وشملال الادق أن يقول « الواو والياء والالف تشترك فى الوقوع زائدة تفصل بين اللام الاولى والثانية فى وزن فعلول وفعليل وفعلال . وذلك مثل بهلول وحليتيت وشملال « والعيب فى عبارة سيبويه كما يلى قوله « الياء تشترك الواو» توهم جواز بهليل الى جانب بهلول وهذا غير مقصود .

قوله «.والالف فى حلتيت » توهم امكان حلتات الى جانب حلتيت وهذا غير مقصود . ولكن هذا اللبس ينعدم لو كانت العبارة قد صيغت على النحو الذى ذكرناه .

جـ ٢ ص ٤٠٤

(الا ان الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الايمن وان شئت تكلفتها من الجانب الايسر . وهو أخف لانها من حافة اللسان مطبقة لانك جمعت فى الضاد تكلف الاطباق مع ازالته عن موضوعه وانما جاز هذا فيها لانك تحولها من اليسار الى الموضع الذى فى اليمين . وهى أخف لانها من حافة اللسان وانها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان فسهل تحويلها الى الايسر لانها تصير فى حافة اللسان فى الايسر الى مثل ما كانت عليه فى الايمن ثم تنسل من الايسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك فى الايمن)

هذا نص مشكل قد يستحيل على القارىء متابعة ما يقصد الكاتب به . ولعل سبب هذا هو كثرة التعليلات « لانها من حافة اللسان » ، « لانك جمعت تكلف الاطباق .. » « لانك تحولها من اليسار ... » « لانها من حافة اللسان .. » و « انها تخالط مخرج غيرها ... » « لانها تصير فى حافة اللسان فى الايسر .. » وذلك بالاضافة الى التكرار والحشو ولو اكتفى سيبويه بالوصف البسيط دون تعليل او تكرار لكان نصه أوفى بغرضه .

ونحن ازاء هذا النص نقنع بالخروج منه بأوصاف هذا الصوت . اما ما يسوقه من علل أو جدل فكل ما ينتهى اليه القارىء لايجاوز الظن او الحدس .

جـ ١ ص ٣

قوله (وانما ذكرت لك ثمانية مجار لافرق بين ما يدخله ضرب من هذه الاربعة لما يحدث فيه العامل وليس شىء منها الا وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لايزول عنه لغير شىء أحدث فيه ذلك من العوامل التى لكل منها ضرب من اللفظ فى الحرف وذلك الحرف حرف الاعراب) .

وردت هذه العبارة فى سياق الحديث عن أواخر الكلمات . وقصد ذكر سيبويه ان آخر الكلمة قد يكون « رفعا أو نصبا أو جرا أو جزما أو ضما أو فتحا أو كسرا أو وقفا » وهذه ثمانية مجار تندرج فى اربعة ضروب فالرفع والضم ضرب والنصب والفتح ضرب والجر والكسر ضرب والجزم والوقف ضرب . أما الفرق بين الاربعة الاولى والاربعة الثانية ، فهو ان الاولى من تأثير العامل اما الثانية فانه بناء لايزول من الكلمة بتأثير العوامل . والمنطق هنا سليم وواضح ولكن الصعوبة فى العبارة التى نقلناها ترجع الى امور:

- عبارة « لما يحدث فيه العامل وليس شىء عنها الا وهو يزول عنه » تكون اوضح لو كانت « لما يحدث فيه العامل ويمكن ان يزول عنه » و يبدو لنا ان التعبير « ليس شىء منها الا وهو يزول » متأثر بلغة سيبويه الام .
- عبارة « ما يبنى عليه الحرف بناء لايزول عنه لغير شىء أحدث فيه ذلك من العوامل » تكون اوضح لو كانت « ما يبنى عليه الحرف (اى الكلمة) بذاته لايتأثر عامل من العوامل التى لكل منها أثر فى اللفظ » و يبدو لى أن سيبويه قد وقع هنا تحت تأثير لغته الام فى استعمال العبارة « غير شىء » بمعنى « لا شىء »

استعمال لفظ « حرف » فى هذه العبارة بمعنى الحركة الاعرابية فى آخر الكلمة وبمعنى « الكلمة » فى مجموعها

وبعد ، فلو أخذنا كتاب سيبويه كله بمثل هذا التحليل لظهر لنا الكثير من أمثال هذه العيوب الاسلوبية .

وسنكتفى الان بذكر عدد من الامثلة لسوء استعماله للمفردات :

جـ ١ ص ٤

فى اول الصفحة يذكر سيبويه أن « الفتح لكل بناء من الفعل معناه فعل » (اى الفعل الماضى) وأن الفعل الماضى لايسكن وأن الوقف (البناء على السكون) يكون فى فعل الامر مثل اضرب . ثم يقول فيا بعد « ولا ضم فى الفعل لانه لم يجىء ثالث سوى المضارع » ، وهو هنا يعنى أن المضارع من بين الافعال يمكن أن يكون آخر مفتوحا او مضموما او ساكنا .

وعلى هذا يكون استعمال « ثالث » غير دقيق والاصوب استعمال « مثلثُ » او « ذو ثلاثة » الخ

يستمر سيبويه فى نفس النص قائلا « وعلى هذين المعنيين بناء كل فعل بعد المضارع » يعنى بالمعنيين فتح آخر الماضى وسكون الأمر

وكان الادق ان يستعمل لفظ « الطريقتين » او « الحركتين » بدلا من « المعنيين » وكلمة « بعد » هنا لم تستعمل استعمالا سليما . وكان الاجدر استعمال « غير» محلها .

وبهذا فالادق ان تكون العبارة كما يلى .

« وعلى هاتين الطريقتين بناء كل فعل غير المضارع »

جـ ٢ ص ١٥٨

(هذا باب مالاتجوز فيه نون خفيفة ولاثقيلة) وذلك الحروف التى للامر والنهى وليست بفعل . وذلك ايه وصه ومه واشباهها وهلم فى لغة الحجاز ... ورغم انها لُمّ الحقتها هاء التنبيه فى اللغتين ... والهاء فضل انما هى ها التى للتنبيه) .

استعمال لفظ اللغتين للاشارة اى تشديد ميم « هلم » اوعدم تشديدها يقتضى انه قد سبق له التحدث عن لغتين وهولم يذكر من قبل كما ترى سوى « لغة الحجاز » . صحيح انه قد ذكر فيما بعد « لغة تميم » التى تخفف او تشدد ولكن ذلك لايجديه شيئا لان اللفظ يشير الى ماقبله . استعمال « انما » هنا يحتمل مخالفة ماقبلها لما بعدها ولامخالفة بين كون الهاء زائدة وكونها للتنبيه . ولهذا كان من الأوفق استعمال واو الاستئناف مكانها هكذا « والهاء فضل وهى ها التى للتنبيه »

ومن الممكن على معنى ما ان نفترض المخالفة وفى هذه الحالة يصح استعمال انما « ولكن بشرطية استعمال الواو معها هكذا » والهاء « فضل (وكان ذلك يقتضى عدم ذكرها) وانما ذكرت للتنبيه » .

جـ ٢ ص ١٥٨

هذا باب مضاعف الفعل واختلاف العرب فيه) والتضعيف ان يكون آخر الفعل ....

استعمل اسم المفعول « مضاعف » وهو من الفعل « ضاعف » والمصدر « التضعيف » وهو من الفعل « ضعف » وكان الاولى أن يشتق الصغيتين من نفس الفعل لأنهما يمثلان عملية واحدة هكذا

(١) هذا باب مضاعف الفعل ... والمضاعفة ...

(٢) هذا باب مضعف الفعل ...والتضعيف ...

جـ ٢ ص ١٥٩

(هذا باب اختلاف العرب فى تحريك الاخر لانه لا يستقيم ان يسكن هو والاول من غير اهل الحجاز) تشير العبارة لاختلاف العرب فى تحريك آخر الكلمة اذا كان الحرف السابق عليه ساكنا لإنه لا يستقيم ان يسكن الاخر وما قبله .

وفى العبارة كما سبق فصل بين الصفة والموصوف ولكن الذى يعنيها هنا هو استعمال لفظ « الاول » وواضح انه يشير فى الباب الى أمرين :

الاول : الفعل المضعف اذا كان فى صيغة الامر . ولما كان أول جزئى المضعف ساكنا ومقتضى بناء الامر سكون الاخر فاننا بازاء التقاء ساكنين ولذا يتحتم تحريك آخر الكلمة .

اختلف العرب من غير اهل الحجاز فى نوع حركة التخلص من القاء الساكنين . وذلك مثل عضُّ عند بعض وعضَّ عند آخرين .

الثانى : فعل الامر اذا وليه لفظ مبدوء بهمزة وصل او بأداة تعريف وهنا يلتقى ساكنان نتخلص منهما بالكسرة هكذا :

« اضرب الولد وعلم ابنك »

وفى هاتين الحالتين يوقع استعمال لفظ « الاول فى لبس » والاولى استعمال لفظ « السابق » ومن الواضح ان اول لفظ « عضّ » هو العين والذى يقصده سيبويه الضاد الاولى المدغمة فى الضاد الاخيرة « عضض » وفى المثال « اضرب الولد » نتوقع ان يشير لفظ الاخر الى الباء فى « اضرب » ولفظ الاول الى اللام (بعد سقوط همزة الوصل) فى الولد . والمقصود العكس ، اى انه أراد بالأول آخر لفظ « اضرب » وبالآخر أول لفظ « الولد »

جـ ١ ص ٤

(والضم فيها (اى فى الحروف) منذ فيمن جرها لانها بمنزله من فى الايام)

١ ــ الانسب استعمال « عند » بدلا من فى فيقال « والضم عند من جرها »

٢ ــ الانسب كذلك أن تكون العبارة « لانها تعنى البعضية فى الايام كما تعنى من البعضية فى الاشياء »

جـ ١ ص ٤

(لانه لم يجيء ثالث سوى المضارع)

المقصود ان آخر المضارع دون بقية الافعال يحتمل أن يكون على احدى حركات ثلاث الضم والفتح والسكون . ومن هنا فقد يكون اللفظ « مثلث » أنسب من « ثالث » .

جـ ٢ ص ٣٣٥

(فهذا الذى عنيت فى الشركة) الانسب استعمال باء الجر فيقال « بالشركة »

جـ ٢ ص ٢٤٣

(وانما صارت هذه الالف عندهم بهذه المنزلة لكثرة تَبَيّنها فى الاسماء . ومما تقوى على انها زائدة أنها ...) الانسب استعمال « وجودها » بدلا من « تبينها » وحذف حرف الجر « على » هكذا

« لكثرة وجودها فى الاسماء ، ومما يقوى أنها زائدة ... »

جـ ٢ ص ٢٤٤

(فان لم تقل ذلك دخل عليك أن تزعم أن الحقت بمنزلة دحرجت) الانسب « فان لم تقل ذلك توهمت انها الحقت بدحرجت »

كذلك يستعمل سيبويه اللفظ « شيء » على نحو قد لا يكون مألوفا فى العربية كما أعرفها . ولا استطيع الحكم على مدى قبول استعمال سيبويه لهذا اللفظ عند معاصريه العرب .

ــ كثر تكرر العبارة « ولا شيئا من هذا النحو لم نذكره » فى الصفحات بين ٣٣٠ ــ ٣٤٥ من الجزء الثانى . وأنا أفضل العبارة « وقد ذكرنا كل ما جاء على هذا النحو » ، بدلا من تكرار النفى لافادة الاثبات .

جـ ٢ ص ٣٣٥

(اعلم أنها لا يلحقها شيء من الزوائد . . .) الافضل « زائد من الزوائد » او « أحد الزوائد » . وفى نفس الصفحة

(ليس شيء من هذا المقال . الا ماجاء فيه) الانسب حذف شيء هكذا

« ليس من هذا المقال إلا ماجاء فيه . . . »

جـ ٢ ص ٣٣٥

(لانه ليس حرف فى الكلام تتوالى فيه اربع متحركات)

استعمال « حرف » هنا غير مقبول فى رأيى ، كما انه لم يكن مقبولا فى رأيى استعمال « شيء » فى التعليق السابق . ولعل السبب ان « شيء » و « حرف » اسم نكرة وقع اسما لليس . واظن ان عدم قبول الابتداء بالنكرة ينسحب على اسم كان وأخواتها . ولهذا فانى لا أعترض على استعمال هذين اللفظين مع تقدم الجار والمجرور فى المثالين هكذا .

« وليس من هذا المثال شيء الا ماجاء فيه . . . » و « لانه ليس فى الكلام حرف تتوالى فيه . . . »

جـ ١ ص ٣

(. . . بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل)

المقصود بـ « لغير شيء » هو « لسبب آخر » . و يبدو لى ان « غير شيء » بمعنى « شيء آخر » استعمال فارسى . وقد لاحظت استعمال هذا التركيب فى اللهجة العربية العراقية المعاصرة حيث يقال « غير شيء » بمعنى « شيء آخر » . ولعل ذلك من تأثير الفارسية فى هذه اللهجة

جـ ٢ ص٣٧٨

(وهى لا يقع شىء منها فى موضع شىء من العلامات مما ذكرناه . . .)

الانسب اسلوبيا فى رأيى عدم استعمال « شىء » ، وخاصة مع تكرارها . ونرى ان تكون العبارة « ولا يقع واحد منها فى موضع اى من العلامات . . . »

جـ ١ ص٣٧٨

(لانه ليس ههنا شىء أصله الواو . . .)

الانسب استعمال « ما » بدلا من شىء هكذا

« لانه ليس ههنا ما أصله الواو . . . »

كذلك فى نفس الصفحة (وليس ههنا شىء بهمز أصله)

والافضل استعمال « ما » هنا كذلك

و بعد فهذه ملاحظات ان عابت اسلوب سيبو يه فانها ولا شك لن تنزل بقيمة عمله العلمى الضخم .

مظاهر معاصرة الجيلين
لدى شيوخ شعراء الخليج
(دراسة فى شعر الشيخ عبد الله الخليلى)

أ. د. أحمد درويش *

النتاج الشعرى للشيخ عبد الله بن على الخليلى يشكل لحظة من اللحظات الفاصلة فى تاريخ الأدب العربى فى عمان، واللحظات الفاصلة بين العصور الأدبية من أدق اللحظات فى تاريخ الأدب المحلية والعالمية، ذلك لأنها لحظات لا تظهر كل جوانبها أثناء فترة تفاعلها وتكونها، والتقاء موجات المد والجذر ودوامات الصراع بين القيم المتقابلة داخلها، فضلا عن أن حدود هذه اللحظات لا تستبين بوضوح إلا بعد انتهاء فترة من الزمن، تتداخل فيها ظواهر العصر الذى يمضى مع ظواهر العصر الذى يأتى تداخل أمواج البحرين حين يلتقيان، ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان أن يشار إلى اليوم الأخير من عام معين أو عصر معين على أنه نهاية عصر أدبى، وإلى اليوم التالى له على أنه بداية العصر الجديد، وكما يقول أحد النقاد الفرنسيين « ليس العصر الجديد زهرة تستيقظ فى الصباح فتجدها قد نبتت فى حديقتك، فتؤرخ لميلادها منذ ذلك اليوم » وإذا ساغ لنا أن نحدد بدقة بداية عصر سياسى ونهاية عصر آخر من خلال أفول دولة وقيام أخرى، فإنه لا يسوغ لنا أن نحدد قيام عصور أدبية توازى بنفس الدقة العصور السياسية، وإذا كان عام ١٣٢ هـ مثلا يؤرخ به كنهاية للدولة الأموية وبداية للدولة العباسية، فإنه لا يستقيم فى التاريخ الأدبى أن نقول إن الإنتاج الذى ظهر عام ١٣١ هـ يختلف عما ظهر فى عام ١٣٣ هـ لمجرد أن كلا من هذين العامين ينتمى إلى عصر سياسى مختلف، ومن هنا كانت ملاحظة الباحثين على عدم دقة التقسيم الذى ارتضيناه لعصورنا الأدبية، وجعلناه موازيا لتقسيم العصور السياسية (١).

(*) أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، والمعار حاليا إلى جامعة السلطان قابوس، بسلطنة عمان.

(١) أنظر ريجيس بلاشير: تقسيم جديد لعصور الأدب العربى «ترجمة، د. أحمد درويش، مجلة « دراسات عربية وإسلامية »، القاهرة العدد الثانى سنة ١٩٨٥.

من هنا كان مؤرخو الأدب القدماء على حق عندما التفتوا إلى ظاهرة « الخضرمة » وإن كانوا قد حصروها فى أضيق حدودها عندما أشاروا إلى إطلاق اسم « المخضرمين » على الشعراء الذين عاشوا من عصر ين متتالين كالجاهلى والإسلامى والعباسى، دون التطرق إلى دراسة ما خلفه كل عصر على نتاجهم أو محاولة تبين النقطة الفاصلة التى التقت فيها الخصائص المتقابلة ، وتولدت عنها خصائص جديدة . واذا وسعنا مفهوم « الخضرمة » قليلا ، فإنه ليس من الضرورى أن نقصره على الإلتقاء فى العصور السياسية ، وإنما نتسع به ليمتد إلى إلتقاء التيارات الثقافية مثل الانتقال من عصر مجلس العلم والمخطوطة إلى عصر المدرسة والجامعة والكتاب المطبوع والصحفية السائر والتغيرات الاجتماعية ، وتتابع مظاهر التطور فى أشكالها المختلفة على مجتمع من المجتمعات ، وما يعكسه ذلك كله بالضرورة من تغير فى المذاق الفنى ، ووسائل الأداء والاتصال ، سرعة أو بطئا ، مشافهة أو كتابة ، مباشرة أو من خلال « تقنيات » علمية متطورة ، ودور الأدب خلال ذلك كله ، حين يجد الأديب نفسه بعد أن امتلك ناصية الوسائل الفنية التى يتعامل بها مع مجتمع معين فيحقق له المتعة الفنية التى ينشدها ، و يتزود الأديب بدوره من خلال رد الفعل الإيجابى بزاد ضرورى يساعده على مواصلة الإبداع ، حين يجد هذا الأديب نفسه أمام مجتمع هبت عليه تيارات مختلفة ، فأثرت فيه أو فى بعض طبقاته تأثيرا ينشد متعة فنية تختلف قليلا أو كثيرا عما ألفت العصور السابقة تقديمه ، فتكون قضية التواؤم والتلاؤم هى محور ما يسمى عادة بقضية الجمع بين « الأصالة والمعاصرة » .

على أنه ينبغى الأشارة إلى أنه لا يكفى أن يقع الأديب فى منطقة « الخضرمة » حتى تنتسب إليه قضية الأسهام فى المواءمة بين « الأصالة والمعاصرة » ، فقد يكون الوقوع فى هذه المنطقة عاملاً سلبياً يجعل الأديب حائرا ببضاعته بين مناخ مجتمع كان قد أعد نفسه له ثم أفل ، ومناخ مجتمع آخر لم يؤهل نفسه له ثم فاجأه بالظهور ، وكثير من أدباء « ما بين الفترتين » ، ذهبوا فى طى النسيان حين كان التاريخ يقلب صفحة عصر ليفتح صفحة عصر آخر .

ولا شك أن النتاج الشعرى للشيخ عبدالله بن على الخليلى يحمل عناصر كثيرة الإيجاب فى فترة « الخضرمة » أو الانتقال فى الأدب العربى الحديث فى عمان ، ويحمل إلى جانب هذه العناصر ، عناصر أخرى قابلة للمناقشة ولا عتبارها عناصر تاريخية ، وذلك شىء طبيعى فى نتاج شعرى استمر أكثر من نصف قرن ، وإن كان لم يعرف طريقه إلى المطبعة إلا منذ أقل من عشرين عاما ، حين طبع ديوانه الأول من نافذة الحياة سنة ١٩٧٣ بالقاهرة ، وهذا الفارق الأساسى بين عمر الانتاج وعمر النشر يمثل سمة أولى من سمات الانتقال بين عصرين عاشهما الشاعر ، ينتمى الأول إلى عصر « السماع » و ينتمى الثانى إلى « عصر القراءة » .

ولد الشيخ عبد الله بن على الخليلى سنة ١٩٢٢ م (١٣٤٢ هـ) أوقبل ذلك بثلاثة أعوام سنة ١٣٣٩ هـ على خلاف فى الرواية (٢)، فى مدينة سمائل التى عرفت فى عمان بأنها من المعاقل الأولى للعلوم العربية والدينية، وانتقل بينها و بين نزوى مقر عمه الإمام محمد بن عبد الله الخليلى، وتلقى فى المدينتين مبادىء علوم القرآن والدين واللغة وما يتصل بها على يد شيوخ من أمثال زاهر بن سعود الرحبى، وحمد بن عبيد السالمى، وسالم بن حمود السيابى، وخلفان بن جميل، وحمدان بن خميس اليوسفى، وقاده هؤلاء الشيوخ إلى المناهل الأولى لجمل الثقافة الإسلامية العربية لكى يواصل طريقه فى التزود والتثقف فأقبل على كتب الأمهات فى علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ، واستأنس ببعض من نتاج الشعراء المعاصرين مثل شوقى، وأنس فى نفسه فى وقت مبكر ميلا إلى قول الشعر تمثل فى ظهور نزعة جمالية لونت نظرته إلى الطبيعة من حوله، وهو يسجل بدايات مولد هذا الشعور لديه فى نص مهم يرد فى مقدمة ديوان «وحى العبقرية» حيث يقول (٣):—

«خرجت و برفقتى عشرون راكبا من خيرة الرجال، وكانت المواصلات أنذاك بوسائل عادية اذ لم يكن وجود السيارات حينذاك بعمان فتجد الماشى فى الطريق وصاحب الفرس والبعير والحمار، منها المعد للنقل، ومنها المذلل للركوب، أما مطايانا فكانت من خيرة الإبل اذ أنها خصصت للوازم الدولة.. خرجنا بها نشق الوادى الخصيب من سمائل وقد تفجرت ينابيع الرى، وعقدت الترع منه للبلاد، وكان وسطه مفعما بالماء العذب الذى فضل عن حاجات البلد وكانت أخفاف الإبل كأنما تقدح الحجر تارة وتطيش بالماء أخرى جامعة بذلك بين ضدين لا يعيشان مجتمعين الماء والنار... ومنذ ذلك اليوم بدا لى أن أقول الشعر وأنا أنظر الماء والنار... وإلى التسم الآخر المتحجر فى صحون الأودية، وقد انعكست به زرقة السماء وخضرة الشجر».

ان هذا النص ذو أهمية خاصة لأنه يصور المناخ الذى ولدت فيه شاعرية الخليلى وهو المناخ

---

(٢) يذكر الشيخ سعود بن على الخليلى فى مقدمة ديوان «وحى العبقرية» للشيخ عبد الله بن على الخليلى أن المؤلف ولد سنة ١٩٢٢ م، و يتابعه على هذا معظم الدارسين، مثل: نورية الرومى: «ظواهر فنية فى غزل عبد الله الخليلى» مجلة البيان الكويتية، مارس ١٩٨٤، وأحمد شباط فى كتاب، ادباء من الخليج العربى ص ١٦٨، وأحمد الجدع، فى «شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية» ص ٣١٠، ولكن المؤلف العمانى عبد الله الطائى ينفرد بذكر سنة ١٣٣٩ م كتاريخ لميلاده، فى كتابه «الأدب المعاصر فى الخليج العربى» ص ١٨١، أما الشيخ سالم بن حمود السيابى، فهو يذكر فى كلمة التقريظ التى صدر بها ديوان «وحى العبقرية» عبارة ملبسة، فهو يقول تحت عنوان: عمره الأن هو الان فى غرة العقد الخامس من عمره أى أنه بين الأربعين والخمسين، واذا علمنا أن الديوان قد طبع سنة ١٩٧٨، فان هذا أن الشيخ ولد فى الثلاثينات من القرن الميلادى وهو ما يخالف كل الباحثين الذين اتفقوا على مولده فى العشرينات لكن هذا اللبس يمكن أن يعين على تفسيره تاريخ كتابه كلمة التقريظ وهو كما جاء فى الديوان ١٤ شوال ١٩٨٢ هـ واذا صح هذا التاريخ فان معناه أن هذه الكلمة كتبت قبل طبع الديوان بثمانية عشر عاما، اذا أنه طبع سنة ١٣٩٨ هـ كما جاء على الغلاف، ومن المعقول أن يكون الشيخ عبد الله وقتها فى العقد الخامس، وان كان هذا يثبت — لو صح — بأنه مضى بين نية طبع الديوان وتنفيذ طبعه ١٨ عاما.

(٣) ديوان الخليلى.. وحى العبقرية، ص ٢١، وزارة التراث القومى والثقافة — سلطنة عمان، سنة ١٩٧٨ م.

الذى رسم لها الأطار فى معظم رحلتها الفنية ، وحتى عندما نمت خطوات التطوير ، تمت فى الغالب انطلاقا من هذا المناخ ، لقد ولد الشعر عنده على إيقاع الأبل والخيول ، وفى مشهد يعد امتدادا حيا وطبيعيا للمشاهد التى كانت تألفها البيئة العربية منذ عصور طويلة ، وهولا شك مشهد عايش مثله امرؤ القيس والمتنبى وأبو فراس ، ولم يعايشه شعراء حواضر المواصلات الحديثة فى عصرنا من المقلدين على نفس الدرجة من الصدق والاندماج ، وانطلاقا من هذا فقد ظل مفهوم الشعر ، ودور الشاعر ، ومجال حركته ، وصلته بالتراث السابق عليه ، وصلته كذلك بالمتلقين من حوله ، ظل هذا كله عند الخليلى متأثرا بذلك المناخ ومرتبطا به ، وحتى فى مجال تصوير الحركة الحسية البحتة ، فقد ظل شعر الخليلى أكثر صدقا واندماجا مع المشاهد التى تتم الحركة خلالها بالوسائل القديمة ، منه مع تلك المشاهد التى تتم الحركة فيها بالوسائل الحديثة ، ولننظر إلى هاتين اللوحتين التى تتم فيها الحركة من خلال الحصان والطائرة ، لنرى كيف كانت درجة الالتحام مع كل عنصر منها يقول فى اللوحة الأولى عن مغامرة بطولة ليلية (٤) :—

تبطنته والليل يسود وجهه	وللغيم فى أرجائه جيش توبان
يخيل لى أنى على الماء تارة	وطورا بأجيال وطورا بكثبان
أقول لمهرى وهو يقدم مرة	ويحجم أخرى كالعثور بميدان
تقدم فما لى فى وغى متأخر	وإلا فلى من جانبى عزم مطعان
أتحجم أشفاقا عليك من الردى	وتطمع أن تحبى بسكنى وسكان
أيجزع من كانت له نفس مؤمن	بأن ملاك الأمر فى يد ذى الشان
فقال لك الله اختبر قدر همتى	فعزمى فى الجُلّى كعزمك سيان
فَجُزْبى أنّى شئت شرقاً ومغربا	تجد صاحبا أوفى ذماما لأخدان

هذا النفس الشعرى القوى الذى يندمج فيه الليل والخيل والبيداء و بطولة الفارس وسمو الكلمة يذكرنا بروائع الشعر العربى فى عصوره الصافية الزاهية ، ولا تبدو عليه أى مسحة من تكلف ، لكننا نجد نفسا آخر مختلفا عندما يختلف المناخ و يصف الشاعر رحلة بالطائرة حين يقول (٥) :—

بعام ثلاث غب تسعين أعقبت	ثلاث مئين ألفهن فريد

(٤) وحى العبقرية ص١١٦ .

(٥) السابق ص١٧٦ .

لسبع ليال بعد عشر لعقدة — خلت صدقتنا بالعزوم جدود
أتينا مطار السيب والظهر مشرف — علينا وعزم الطائرات عنيد
نذلل منها للمرام فنية — تمزق ثوب الأفق وهو جديد
فما وقعت فى مدرج منذ حلقت — سوى مدر ثم حيث نريد
لنستظهر الظهران عن خير قصدنا — ونبدأ بالخير المدى ونعيد

ان الفرق فى النفس الشعرى بين المقطوعتين ، وربما نتعدد الأسباب التى أدت إلى ذلك ، ولكن سببا رئيسيا منها دون شك يعود إلى علاقة التأمل ووجود الذات الشاعرية محورا لها بالقياس إلى سرعة حركة الكائنات من حولها ، ولا شك أن مفهوما معينا للحركة ارتبط بميلاد الطاقة الشاعرية الأولى عند الشاعر، وتبنته قراءات طويلة متأنية فى التراث الشعرى ، جعل النفس الشعرى الجيد يزداد تألقا فى مناخ اللوحة الأولى .

اذا كان هذا التقابل بين اللوحتين السابقتين يمثل لونا من « الثنائية » فى الوسائل الفنية عند الشيخ الخليلى ، فإن هذه الثنائية امتدت لتشمل كثيرا من عناصر الأداء الفنى عنده ، وتبدو معها هذه العناصر موزعة بين وفائها للمناخ الذى ولدت فيه واشتقت منه ، واستجابتها لجانب من حاجة التطور الذى ألم بالعصر فى مرحلة لاحقة بعد ميلاد الشاعرية وتكونها .

ولعل أول ما يلفت النظر من عناصر هذه الثنائية ، هو الثنائية على مستوى المعجم اللغوى الذى يلجأ إليه الشاعر ، فهو يجد أمامه من ناحية نماذج الشعراء الفحول الذين حفظ لهم وتأثر بهم ، وتكونت ثروته اللغوية على أيديهم ، وهذه الثروة هى التى تستجيب له بمفرداتها فى لحظة العطاء الشعرى ، لكنه يجد من ناحية ثانية ذلك الجمهور الذى يقرأ شعره أويسمعه و يتمتع به ، وتحول غرابة الكلمات أحيانا بينه و بين الوصول إلى لب المتعة الفنية ، و ينبغى أن يشار هنا إلى أن هذه المشكلة ليست جديدة وليست خاصة بالشيخ الخليلى وحده ، وانما هى مشكلة وقف أمامها كثير من الشعراء حتى فى العصور المتقدمة ، وتنوعت أمامها المذاقات بين إيثار لفخامة الغريب بما يدل عليه من خصوصية فى التلقى والاستيعاب وغزارة ثقافة وعمق اتصال ، و بين إيثار للكلام السهل السلس بما كان يرتبط من رقة الذوق ومد حبال التواصل ، ولقد كانت مشكلة المعجم فى الشعر القديم تتبدى أحيانا من خلال تنويع المفردارت سهولة وغرابة على الأجناس الأدبية وإيثار كل جنس بما هو أليق به ، على هذا النحو كانت تأتى الطرديات والأراجيز غالبا وهى ترتدى معجما خاصا بها يحاكى لغة الأعراب الذين تشيع بينهم هذه الفنون على حين تأتى قصائد الغزل والعتاب والمديح وما شاكلها فى لغة « حضرية » لكن كلا من اللغتين كان يمكن أن تحوم حوله شبهة ما يمكن أن تقلل من قيمة الشاعرية ، فالأولى يتهددها

« والاغراب والانغلاق » والثانية يتهدها « الضعف » ومن هنا كان بعض الشعراء الحضريين يدفعون عن أنفسهم التهمة باللجوء أحيانا إلى صياغة قصائد من الطرديات والأراجيز، كما كان يفعل بشار وأبو نواس، كما كان يتم الدفاع أحيانا عن اللغة بأنها تستطيع الوصول إلى مرام بعيدة، ومن خلال هذا فرقوا بين « الغرابة » و « الجزالة » (٦) وقد عبر البحترى عن ذلك تعبيرا موفقا حين قال فى وصف كلمات ابن الزيات (٧) :ـ

حزن مستعمل الكلام اختياراً — وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فأدركن — به غاية المرام البعيد

وكان هذا هو المذهب الوسط الذى جاءت عليه كثير من عيون القصائد العربية، لكن أمر المعجم الشعرى بدأ يأخذ بعدا جديدا مع الاقتراب الشديد للشعر من الجمهور بعد ظهور المطبعة، وحرص الشاعر بنفسه على أن يقدم نتاجه للناس، وأن يحاول إقامة الجسور بينهم وبين الطريق المؤدية للب الذى يتوخاه، وكانت قضية المعجم شاغل الشعراء أنفسهم، وأوضح دليل على ذلك اللجوء إلى الهوامش التفسيرية فى أسفل صفحات الدواوين وهى هوامش يضعها الشاعر المعاصر بنفسه غالبا وتشير إلى محاولته لسد الفجوة بين المعجم الشعرى وبين اللغة المفهومة من جمهور المثقفين، ومن هنا فإنه يمكن اعتماد مبدأ شيوع الهوامش الشعرية فى انتاج شاعرنا، قلة أو كثرة باعتبارها دليلا موازيا على مبدأ تطور المعجم الشعرى عنده من هذا المنظور.

وقبل أن نطبق هذا المبدأ على دواوين الشيخ الخليلى نشير إلى أن دارسيه كانوا دائما يشيدون بسلامة لغته وصحتها وجزالتها، وأحيانا يتوقفون أمام شيوع الغريب فيها، يقول الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (٧أ) : « الشيخ عبد الله الخليلى نموذج جيد تمثيل هذا الجيل (جيل المتأثرين بالتراث) على الأقل فى مراحله الأولى، وفيه حسنات هذا النفر التى تتمثل فى طرقه كل أغراض الشعر وفى الحفاظ الوعر على اللغة والموسيقى الخليلية، فلا تكاد تخطئها النظرة العجلى إلى شعره ... وتروعك منه تلك القدرة الفائقة على النظم، والتى فاقت كثيرين من أبناء جيلنا لأنه صرف كل همه إلى التجربة والتجديد، على حساب اللغة الجزلة المصقولة فى كثير من الأحيان » . ويقول الأستاذ أحمد الجدع (٨) : « أن هذه الثقافة الإسلامية وذلك الرصيد العلمى، جعلا شاعرنا شديد التمسك بالأسلوب العربى الرصين وبالمنهج الشعرى

---

(٦) انظر الصناعتين لأبى هلال العكسرى ص ٤٩ ـ القاهرة، سنة ١٣٢٠ هـ .

(٧) ديوان البحترى، ص ٢٠٦، طبعة القاهرة سنة ١٩١١ م .

(٧أ) فى الشعر العمانى المعاصر ـ ص ١٥ ـ القاهرة سنة ١٩٨٩ .

(٨) شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية ـ عبد الله بن على الخليلى شاعر من عمان، ص ٣١٤ .

الخليلى » و يضيف فى موقع آخر(٩) : « واستخدم الشاعر فى قصائده لغة هى أقرب للغة السابقين منها إلى لغة الحاضرين ، ولعل الأجواء التى عاشها الشاعر فى أثناء نظم هذه القصائد ، هى التى دفعته لاستخدام هذه اللغة ، ونحن لا نعيب استخدام الألفاظ القديمة بل نحن من أنصار احياء هذه الألفاظ ، ولكننا لسنا مع حشدها بحيث تنقلب القصيدة إلى نموذج للشعر القديم » .

سلامة المعجم الشعرى عند الشيخ الخليلى اذن مع جنوحه إلى المعجم القديم وهى موضع اتفاق من دارسيه ، لكننا نود أن نشير إلى التطور الذى حدث فى لغة هذا المعجم ، استجابه لدواعى « الخضرمة » التى تم فيها الانتاج ، وإذا أخذنا الهوامش التى أشرنا إليها معيارا لقياس هذا التطور، وقارنا من خلالها بين أشهر دواوينه ، ديوان « وحى العبقرية » والذى صدر سنة ١٩٧٨ ، وآخر دواوينه « على ركاب الجمهور» والذى صدر سنة ١٩٨٨ ، فاننا سنجد النتيجة التالية :ـــ

الديوان	سنة الطبع	عدد الصفحات	عدد الهوامش المفسرة
وحى العبقرية	١٩٧٨	٥٣٠	٨٠٩
على ركاب الجمهور	١٩٨٨	١٤٠	هامشان

وهذه النتيجة لا تحتاج من الناحية الأحصائية إلى تعليق ، وان كانت تحتاج إلى بعض الملاحظات التوضيحية :ـــ

(١) الفرق بين طباعة الديوان هوعشر سنوات ، لكن ذلك لا يمثل فى الواقع الفرق بين « تأليفيهما » ، ذلك أن قصائد الديوان الأول ، اذا كانت قد جمعت سنة ١٩٧٨ ، فان تاريخ كتابة بعضها ، يمتد قبل ذلك إلى نحو أربعين عاما واذا كانت قصائد الديوان ، قد خلت من اثبات تاريخ كتابتها ، فيما عدا القليل (وتلك ثغرة لو تم تلافيها لساعدت على إعطاء مزيد من الدقة فى رصد التطور التاريخى فى كثير من جوانبه) فان بعض الأحداث التاريخية تشير إلى قدم كتابة القصائد ، فهناك قصائد فى مدح الأمام محمد بن عبد الله الخليلى ورثائه ، وقد توفى فى عام ١٣٧٣ هـ أى قبل خمسة وعشرين عاما من

(٩) المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

طبع الديوان فى سنة ١٣٩٨ هـ ، ومن ثم فلا ينبغى أن يحسب هذا الفارق على أنه فارق حدث فى عشر سنوات ، وانما على أنه مجمل الإستجابة لطر يقتين ، تنتمى احداهما إلى الأصالة وتنتمى الأخرى إلى المعاصرة .

(٢) كان موضوع الديوان الثانى وهو الشعر القصصى الحر ، وعنوانه الذى يشف عن توجهه « على ركاب الجمهور » عاملا مساعدا على اكتسابه صبغة لغو ية معينة (١٠) ، لكن ذلك لا يمنع هذا الديوان من حق تمثيل الفترة التى ظهر فيها ، خاصة أن قصائد الشيخ الخليلى التى ظهرت متفرقة فى الصحف خلال السنوات الأخيرة ، والتى لم تجمع بعد فى ديوان ، تنحو منحى لغو يا ، يتجه تطور يا من المحور الأول الذى يمثله « وحى العبقر ية » إلى المحور الثانى الذى يمثله « على ركاب الجمهور » وهذه القصائد بحاجة إلى دراسة متأنية بعد تجميعها ، ولكننا يمكن أن نشير هنا عابر ين إلى واحدة من هذه القصائد ، وهى قصيدة « المسيح والخائن » والتى أجر ينا حولها تحليلا مفصلا من قبل (١١) .

(٣) ينبغى أن يشار إلى أن توز يع الهوامش فى ديوان « وحى العبقر ية » حدث فيه لون من عدم الاطراد ، وهذا ما جعلنا لا نستنتج وجود نسبة مئو ية للكلمات الغر يبة من حساب العلاقة بين عدد الصفحات وكلماتها وعدد الهوامش ، ذلك أن إثبات الهوامش فى الجدول جاء على النحو التالى :—

	من-إلى	عدد الصفحات	عدد الهوامش	عدد الكلمات تقر يبا	النسبة المئو ية للكلمات الغر يبة
القسم الأول	٣١-١٦١	١٣٠	٧٤٣	١٩٨٩٠	٣,٧٣٪
لقسم الثانى	١٦٢-٤٠٢	٢٤٠	لا يوجد	٣٦٧٢٠	صفر
القسم الثالث	٤٠٣-٤١٢	٩	٤٦	١٣٧٧	٣,٣٤٪
القسم الرابع	٤١٢-٤٧٧	٦٥	لا يوجد	٩٩٤٥	صفر
القسم الخامس	٤٧٨-٤٨٣	٥	٢٠	٧٦٥	٢,٦١٪

---

(١٠) انظر الدراسة التحليلية فى مقدمة « على ركاب الجمهور » بقلم الدكتور / أحمد درو يش ، مسقط ، سنة ١٩٨٨ .

(١١) اللغة العربية — دراسات ونصوص — كلية الآداب — جامعة السلطان قابوس ، ١٩٨٧ م .

وهذا الاضطراب لا تفسير له فى الديوان ، فلا هو مرتبط بموضوعات بعينها ، ولا الصفحات التى تركت دون تهميش تحمل مستوى لغويا يختلف عن الصفحات التى ذيلت بهوامش فهنا وهناك يجد القارىء ما يستدعى التفسير حينا ، وما ليس بحاجة إلى تفسير فى كثير من الأحايين ، ومن هنا حساب النسبة الجزئية ، تكون أدق وهى نسبة تدور حول ٣,٥ ٪ فى الصفحات التى وردت فيها هوامش ، فى حين أنه لو تمت نسبة الحصر الكلية قياسا إلى عدد كلمات الديوان (وهى نحو ٧٠٩٩٢ كلمة) وعدد الهوامش الكلية (٨٠٩ هوامش) ، لكانت نسبة الغريب فى الديوان ١,١٣ ٪ وهى نسبة غير دقيقة عندما يؤخذ فى الحسبان هذا الاضطراب الذى أشرنا إليه .

٤ ــ لا يتوقف التفاوت فى استعمال الغريب على الانتقال من فترة إلى فترة وانما يوجد التفاوت فى الديوان الواحد ، حيث يختلف المعجم الشعرى اختلافا بينا من قصيدة لأخرى حسب ما يراه الشاعر من دواعى الموقف وأنماط المتلقين فحين يتصل الوقف مثلا بتقليد قصيدة تراثية كما حدث فى قصيدته « المقصورة » التى يعارض فيها مقصورة ابن دريد المشهورة ، يلجأ الشيخ الخليلى الى صياغة قصيدة طويلة من مائتين واثنين وخمسين بيتا ، وتكثر فيها الهوامش اللغوية حتى تصل إلى مائة ثلاثة عشر هامشا ، محققة نسبة فى الغريب تصل الى نحوه ٪ (٤,٩٢ ٪) ويمكن أن يلحظ هذا الاتجاه من أبيات القصيدة الأولى :

يا سارى البرق يهلهل السما ... يخط أسطارا كلألاء السنا
تسوقه لواقح ندية ... ومرزم بين حنين ورغا
حتى اذا ضرى به هادره ... وخاف منه أرسل الدمع بكما
فاضحك الأرض فعادت وربت ... وأنبتت من كل زوج مانما
يا برق داج أربعى مناجيا ... عن همسات الشوق فى دمع الحيا
يا برق ناغ مهجتى مبتسما ... عن نغمة اللطف وهمسة الرضا

وذلك النوع من البناء اللغوى الذى يرد فى المقصورة (١٢) ، يتفق مع الأهداف التى كانت تقال من أجلها أمثال هذه القصائد ، وهى تعود فى جزء هام منها الى اثبات « المقدرة اللغوية » لأنها تنسج على نمط قديم ، قد تمت معارضته مرات ومرات ، ومن ثم فالشاعر يضع فى الحسبان ، احتمال المقارنة مع سلسلة من الشعراء سبقت فى النسج على منوال هذه القصيدة ، وأولهم شاعر القصيدة الأولى نفسه ، وهو هنا ابن دريد ، من هذه الناحية يكاد يلتقى هذا النوع من القصيدة

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٢٣ . ونود أن نشير هنا إلى أن نماذج بناء القصائد المقصورة قد ظل يراود الشاعر فيما بعد ، حتى أصدر موسوعة شعرية كاملة ، صدرت فى ديوان مستقل بعنوان « وحى النهى » سنة ١٩٨٠ ، وجاءت كلها فى شكل قصيدة وعظية مقصورة التزمت فى قافيتها الألف المقصورة أو الممدودة المخففة وما شاكلها من الأفعال و بلغت أبياتها أكثر من ستمائة بيت ، واكتسبت قيمتها الأساسية مما تحتوى عليه من مواعظ ونصائح رتبت على حروف المعجم كلها .

بقصائد « البديعيات » التى شاعت فترة فى مجال المديح النبوى خاصة والتى كان أصحابها يحاولون فيها اثبات مقدرتهم على الاتيان بألوان بديعية اكثر ممن سبقوهم ، وان جاء ذلك على حساب محتوى القصيدة ، الذى يحتل فى العادة مرتبة متأخرة فى مثل هذه القصائد ، والذى يجيء وقد شابه بعضه بعضا ، وهى سمة قد لا تبتعد أيضا عن قصائد المقصورات .

غير أن هذا المستوى اللغوى ، لا يطرد فى الديوان كما أشرنا ، وإنما يخلص الشيخ الخليلى فى حالات كثيرة إلى لغته الخاصة فيبدى لنا لغة « جزلة » على الطريقة التى يحدد شروطها القدماء ، و يتمتع بها المعاصرون ، وهنا يبدو الأسلوب « الرقيق » وكأنه هدف هام للقصيدة ، بل وكأنه قيمة جمالية مستقلة و يبلغ من اعتزاز الشاعر بها أن يقرنها بالحياة مع المحب ، كما سنرى فى هذا المقطع الرقيق من قصيدته الغزلية : « همسات الوداع » (١٣) :ـ

وحبيب كأنه نضرة النعماء	فى نفحة النسيم الرطيب
عشت عمرى بقربة اجتلى النعمة	والعيش فى الرداء القشيب
وتمنيته جلالا وحسنى	وجالا ونفحة من طيب
وتمتعت بالحياة به خضرا	ء أحلى من رقة الأسلوب
ولمست النعيم بردا لديه	بين أزراء أنسه والجيوب
ياحبيبا فى خلقة اللين	والرقة والغنج فى مباة لعوب
والوفا والوئام والصدق	والاخلاص واللطف فى ذكاء اللبيب
هاك روحى فاستبقها أوأضعها	سلمت روحك التى تحتفى بى
لست أنساك فى جمال محياك	وفى ذلك القوام الرطيب
لست أنساك فى خلائقك الغر	وفى خلقلك البديع العجيب

اننا هنا مع نفس شعرى يختلف مذاقه عما ألفناه فى المقصورة ، والقارىء غالبا لا ينظر إلى أسفل الصفحات وهو يقرأ أمثال هذه المقطوعة ، ان القصيدة هنا تحمل المتلقى معها وتشغله عما عدا الجرس والإيقاع ، بينما كان على القارىء أن يحمل هو القصيدة فى مثل النمط الأول ، ولكى يحملها فلابد أن يكون قارئا ذا قدرة خاصة ، وذا بصر بالدروب الدقيقة ، وربما ولد ذلك متعة لدى ذلك القارىء المتميز الذى يحس بأهليته لحمل ذلك العبء الوقور .

ولا شك أن ذلك الفارق فى التصور بين ما يقدمه كل لون ، يجعل النمط الثانى أقرب إلى أذواق عامة المعاصرين ، دون أن يمنع ذلك من نسبة هذا اللون إلى عائلة عريقة فى الأداء الشعرى تصعد من ناجى وعلى محمود طه ، وإسماعيل صبرى فى العصر الحديث ، وتمتد إلى البحترى وابن الرومى والعباس بن الأحنف وجماعة الظرفاء وأصحاب الغزل الرقيق فى العصرين العباسى الأموى .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٧٤ .

إلى جانب هذين المستويين فى الأداء اللغوى فى القصيدة ، نجد مستوى ثالثا يتجلى على نحو خاص فى القصائد ذات الطابع القصصى « من الشعر الحديث » فى ديوان « على ركاب الجمهور » ، وهو الديوان الذى لاحظنا خلوه تقريبا من الهوامش التفسيرية فى هذا الديوان سوف نجد مستوى لغويا ، يختلف عن مستوى « الغريب » الذى عرفنا نمطه فى المقصورة ، ومستوى « الجزل » الذى رأينا نموذجا منه همسات الوداع ، ويمكن أن يوصف هذا المستوى الثالث بأنه « مستوى عملى » لا يدعو القارىء إلى التأمل فى لغة القصيدة فى ذاتها كما كان الشأن بصفة عامة فى المستويين السابقين ، وانما يدعوه إلى التأمل فى المحتوى الذى يساق إليه من خلال هذه اللغة « العملية » و ينصرف تركيز الشاعر فى هذه الحالة إلى « الحكاية » التى تريد أن يقدمها وما يستنتجه من نتائج وعظات وعبر ، فمثلا فى قصة « كيف أعمل » يدور فى أحد المشاهد حوار بين « مفوض » و « ظالم » ، وهما الشخصيتان الرئيسيتان فى الحكاية ، حول المكيدة فى الحرب ، فيأتى على لسان « مفوض » هذا المقطع (١٤) :ـ

يا ظالمـــــــــا
مـا ثم تـنـفـع قـوة أبـدا ولا بـطـش عـنـيـف
لـكـنـه الـتـفـكير والـرأى الـحـصـيـف
فى حـيـلـة .. جـبـارة بـخـيـوطـهـا الايـسـتـهـان
فـــهـــلـــم لـلـــصـــحـــراء
نجـــمـــع حـــولـــنـــا الحـــطـــب الـــكـــثـير
ونـــســـوقـــه حـــتـــى نـــكـــومـــه أمـــام الـــبـــاب
مـــن جـــحـــر الـــشـــجـــاع
ونجىء بالـنـيـران ثـمـة تـشـعـل الحـطـب الـوقـود
فـــاذا أقـــام بـــبـــيـــتـــه ذاك الـــشـــجـــاعُ
خـــــــوى
فـــأســـكـــره الـــدخـــان فـــات فى ذل مـــهـــان
واذا تهـــــور
آحـــرقـــتـــه الـــنـــار، فـــهـــو بـــغير شـــك مـــيـــت
تحت الهـــــوان

إن اللغة هنا مع خلوها من المفردات الغريبة أو الجزلة ، تكاد تخلو أيضا من وسائل التكثيف الشعرية الأخرى من رمز وايحاء ، بل وتكاد تخلو من التصوير نفسه ، وذلك استجابة للهدف

---

(١٤) على ركاب الجمهور .. من الشعر الحديث ، تأليف عبد الله بن على الخليلى ص ٤٨ ، مسقط سنة ١٩٨٨ ، مطبعة النهضة .

العلمى الذى تتوخاه القصيدة أو القصة الشعرية ، غير أنه لابد أن نلاحظ أن القصة الشعرية ، لا يجىء مستواها اللغوى كله عند الشيخ الخليلى على هذا النحو ، حتى فى داخل الديوان الواحد ، والفترة الواحدة . فنحن نجد فى ديوان على ركاب الجمهور ، مقاطع من قصائد ، يتحلى فيها الأسلوب عن هذا « المستوى العلمى » ليقترب من المستوى الجزل ، وهو فى الوقت ذاته يتخلى عن منهج السرد الخالص — كما رأينا فى المقطع السابق — إلى منهج التصوير ، كما يمكنه أن يظهر فى هذا النص من قصة « صرامة الفاروق » (١٥) الذى يصفه فيه عمر بن العاص أرض مصر :

أرض الكنانة اسحبى بالدين أذيال الهنا
وباركى الفسطاط
حول نيلك الذى بكل الخير فى الأرض جرى
بأسباب الغنى
بالعز بالمنعة بالسؤود بالفخر بيمن يهدى
بنعمة الله
تحتضن الأرض جلاليه وفى غلاليته آيات السما
يقذف من جامة الرزق
لجيننا صافيا على نضار أرضه كما يشأ
كأنما يطمث من كعبها
أيضعها
وقد تبرجت ، ونضجت بيضاتها ، فلقحت وولدت
كل نعيم وغنى
على سرير مجده ، على سرير عزه
وكل ما دب على هذا السرير ناعم
والله جل منعم كما يشأ

لقد كان ظهور وغلبه « المستوى العملى » فى لغة الديوان الأخير ، مثار نقاش وجدل بين قراءة شعر الشيخ الخليلى ، وخاصة أن قصائد هذا الديوان ، جاءت فى شكل قصائد من الشعر الحر ، ففقدت فى رأى من لم يتحمسوا لهذه التجربة عند الشيخ الخليلى ، ميزات قديمة دون أن

---

(١٥) المرجع السابق ص ٦٩ .

تستعيض عنها بميزات حديثه (١٦) ، وقد يكون صحيحا أن تمكن الخليلى من أدوات الشعر الملتزم ، وأنسه بمناخه ، يجعل حركته هناك رغم القيود أكثر طواعية ، و يؤكد ما قلناه فى موضع سابق من هذا البحث ، من أنه ألف ايقاعا معينا فى الحركة فهو معه أكثر تجاو با ، لكن تمكنه من الارتقاء بمقاطع من المستوى العملى للاقتراب بها من المستوى الجزل من ناحية ، ثم هذه القيمة النفسية لإقدامه هو على خطوة تجديدية من ناحية أخرى يجعل لهذا الديوان الأخير وزنا خاصا فى قياس حركة الأصالة والمعاصرة عنده (١٧) .

تمثل « الموضوعات الشعر ية » مؤشرا هاما من مؤشرات الانتقال من مفهوم إلى آخر ، أومن تصور جيل إلى تصور جيل تال له ، لوظيفة الشاعر ، ومسئولياته لتحقيق الاشباع الفنى تجاه ذاته أوتجاه مجتمعه ، على اختلاف فى مفهوم المجتمع من عصر إلى عصر ، أوميله لترسيخ أقدامه فى الفن من خلال « محاكاة » النماذج الفنية العليا التى سبقته فى الفن الذى ينتسب إليه .

ولقد كان تحديد الموضوعات الشعر ية جزءا هاما من المعايير التى يستند اليها مفهوم « عمود الشعر » عند النقاد العرب ، ومن خلاله يتم التفر يق بين الذين يلتزمون بموضوعات القصيدة التقليدية ، و ينجحون فيا يسمى « التحام أجزاء النظم والتئامها فيصلون من الوقوف على الأطلال إلى بكاء الديار فوصف الرحلة ومشائها والتخلص إلى المدح وهؤلاء يدرجون فى دائرة « القدماء » اذا استوفوا شروط الالتزام الأخرى ، و بين أولئك الذين يخرجون عن هذا فيعدون من « المحدثين » . وتتردد فى كتب البلاغيين والنقاد العرب عبارات كثيرة فى هذا الشأن من أمثال عبارة ابن رشيق :

« بنى الشعر على أر بعة أركان وهى المدح والهجاء والنسيب والرثاء ، وقالوا قواعد الشعر أر بع ، الرغبة والرهبة ، والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الأعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب والتوجع » (١٨) .

لقد ظلت تمثل هذه الأركان والقواعد فى مجملها التصور الشائع لما يطرقه الشاعر من موضوعات ولقد تفرع عنها موضوعات أخرى ولكنها تظل فى اطارها ، مثل الافتخار بالذات أوبالقبيلة أوبماض الأمة فى شكل الشعر التاريخى ، وكذلك المديح النبوى الذى شغل حيزا هاما فى التراث الشعرى العربى ، وعرفت العصور اللاحقة اضافة أبواب أخرى إلى الشعر مثل الأخوانيات والمراسلات بين الشعراء ، إلى جانب ما شاع كذلك فى بعض الفترات من ألوان من

---

(١٦) انظرفى الشعر العمانى المعاصر ، د . عبد اللطيف عبد الحليم ، ص ٥٣ .

(١٧) انظر الدراسة التى كتبناها فى صدر ، ديوان على ركاب الجمهور ، بعنوان : الخليلى وتجربة الشعر الحديث .

(١٨) العمدة فى نقد الشعر لحسن بن رشيق القيروانى ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، جـ ١ ، ص ٧٧ .

« نظم العلوم » شعراء سواء كانت علوم اللغة أو علوم الدين ، وقد امتد هذا الاتجاه ليشمل علوم الفلك والبحار ، وليستجيب بذلك لضرورة حيوية فى حفظ المعرفة الشفهية وسهولة انتقالها من خلال النظم فى عصر كان الاعتماد فيه على السماع أكثر من القراءة ، ومع جلال الهدف الذى أدته هذه المنظومات فانها تقتصر على الأستفادة من الشعر بوزنه فقط ، وتبقى لها بقية خصائص النثر ، مما دعا القدماء والمحدثين معا إلى نسبتها إلى النظم لا إلى الشعر.

و ينبغى أن نشير كذلك إلى أنه لحق بهذا التصور فى مفهوم موضوعات الشعر بعد أن تراكمت النصوص الجيدة منه عبر أجيال متعددة ، فن معارضة هذه النصوص والنسيج على منوالها فى شكل المعارضات والتخميس والتربيع وما شاكل ذلك .

هذا التصور القديم فى مجمله احتفظ التصور المعاصر للشعر بلب عناصره ، و بدأ يضيف إليه عناصر أخرى جديدة ، من واقع دور الشاعر فى المجتمع ، ومن واقع تطور مفهوم الجماعة والمجتمع ، فكان ظهور ألوان جديدة من الشعر مثل ظهور الشعر الاجتماعى الذى تأثر بميلاد المذهب الرومانسى واهتمامه بالطبقات الدنيا فى المجتمع ، وشعر الكفاح السياسى ، الذى تأثر بالظروف التى مرت بها الأمة العربية فى القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، وكذلك تبلور مفهوم آخر للشعر الوطنى ، تبعا لتغير مفهوم القوميات الحديثة ونمو الاتصال بين أجزاء الوطن المتباعدة ، وكذلك مفهوم الشعر الإنسانى الذى يتجاوز اطار الشاعر الفرد وما يحيط به و يوسع دائرة تبادل الأحاسيس ، ويمكن أن يضاف إلى ذلك مسحة العصرية التى يضيفها البعض على الأنتاج الحديث فى الشعر ، فيهبط به من أبراجه العاجية إلى مشاكل الناس اليومية ، ليصبح كما كان يقال عن جاك بريفير مثلا أنه شاعر المترو والمقهى والرصيف ، وربما تمثل ذلك الاتجاه عند البعض فى الحديث عن بعض المخترعات العصرية ، كالطائرة والصاروخ والهبوط على القمر.... الخ « أوفى شكل تطور فنى يحدث للقصيدة سواء بالباسها الثوب العصرى للموسيقى الشعرية أو يتداخلها مع الأجناس الأدبية كالقصة والمسرحية ، وهى تداخلات لم تكن مألوفة فى التصور القديم فيما عدا بعض المواقف القصصية فى القصائد الغنائية.

أين يمكن أن نجد الانتاج الشعرى للشيخ عبد الله الخليلى على خريطة هذا التصور لموضوعات الشعر فى المفهومين القديم والجديد ؟

إن الذى يتصفح ديوان وحى العبقرية ، وهو أهم الدواوين كما أشرنا من قبل يجد موضوعات مختلفة تغطى التصور القديم أو معظم حقوله ، وتشارف التصور وتلم ببعض من حقوله ، وقد حرص الشاعر على أن يقسم الديوان إلى مجالات :

مثل ، مجال السلوك أو التصوف ، والمدح النبوى ، والحكمة ، والوطنيات ، والملحمة والتأمليات ، والأخوانيات ، والغزليات ، والموشح ، والمراثى ، والشعر القصصى والتخميس ،

وهذا التقسيم نفسه يدل على مدى الحرص ، على استيفاء الديوان حظه من المجالات الشعرية التى ألم بها القدماء ، و يعكس هذا التقسيم من ناحية أخرى ثقافة الشيخ عبد الله الخليلى الواسعة فى المجالات الدينية والتاريخية والأدبية وانعكاس هذه الثقافة ــ بطريقة قابلة للنقاش ــ على صفحات الديوان ، فالثقافة الدينية تنعكس على المجالين الأولين ، وتظهر روحا دينية صافية عند الشيخ الخليلى تأثر أداؤها الشعرى بتراث شعر التصوف وشعر المديح النبوى عند كبار شعراء هذا المجال بدءا من قصيدة البردة وما حظيت به من معارضات ونشج على المنوال والنهج ، و وصولا إلى ابن الفارضى وشوقى من بعده ولا بد من ملاحظة أن شوقى يترك بصمات واضحة فى الديوان وأنه موضع اعجاب من الشاعر منذ صفحات الديوان الأولى ، بل حتى فى اللحظات التى عاصرت مولد الموهبة عنده ، حيث يقول هو فى صدر الديوان : « كان أكثر ما يثنينى (عن قول الشعر) بيت حفظته عن شوقى وهو قوله :ــ

والشعر مالم يكن ذكرى وعاطفة	أوحكمة فهو تقطيع وأوزان
فقلت لا أقول ، حتى أكون قادرا	وما ذلك على الله بعزيز (١٩)

وتنعكس كذلك فى هذا الجزء من الديوان أنفاس العشاق من المتصوفين من أمثال رابعة العدوية وابن عربى والحلاج الذى يعلن الشاعر فى موقف آخر أنه قرأ عنه مسرحية شعرية من الشعر الحديث هى مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور (٢٠) وعندما يصفو نفس الشاعر هنا من المحسنات والتكلف والسرد المباشر ، فانه يمكن أن تصدر عنه غزليات صوفية رفيعة فى مثل قوله فى قصيدة المصلى :ــ

ياحبيبى أراك وسط ضميرى	تتجلى نورا به أتحلى
ياحبيبى جللت قدرا فاعزز	بشوق اليك فى الحب ذلا
ساقه الشوق للمقام فلما	قارب الوصل ، هاله ما تجلى
وتراءى لعينه شبح القصد	فدانى ولم يكد ينسلى
ان فى حضرة الحبيب مقاما	ت عليها تفاوت الناس فعلا
وعزيز من ذل فى حضرة القد	س لوجه الحبيب حين أطلا

---

(١٩) ديوان الخليلى « وحى العبقرية » ، ص ٢١ .

(٢٠) أنظر .. « على ركاب الجمهور » ، ص ٢٢ .

وتـــراءت لـــه الخـــيـــام فـــلما ... مـــال نحـو الخـيـام نـودى مـهـلا

وسـقـاه الهـوى كـؤوسا مـن الخـمـر ... المـصـفى فـلـك يـكـد ينسلى (٢١)

ان هـذا الـنفـس الـشعرى الذى يجمع بين التصوف والغزل ويجنح إلى الأسلوب الجزل يمثل نمطا مـن الشعر الدينى العذب عند الشيخ الخليلى ، وهو سلمه الذى يصعد عليه فيما بعد إلى شعر الـغـزل الخالص الذى يتخذ نفس رموز المحبوب والخمر والتواصل و يصعد بها إلى هذا المنبع من الغزل الصوفى .

يمارس الخليلى لونا آخر من الشعر الدينى أقرب إلى طقوس التعبد ، و يتمثل ذلك فى نظم الأسماء الحسنى وفى سرد تاريخ الرسول ، وهو تقليد يمتد إلى قائمة الموضوعات التقليدية التى من كمال الشاعر الالمام بها ، وتوجد نماذج لها كثيرة فى تراث الشعر الدينى عامة والشعر الدينى فى عمان خاصة ، ولعل من أبرز نتائجها فى الجيل الذى سبق الخليلى ، شعر أبى مسلم البهلانى المتوفى سنة ١٩٢٠ م والذى خصص ديوانا (٢٢) كاملا لنظم الأسماء الحسنى بدأه بقصيدة طويلة سماها « الوادى المقدس » تقع فى نحو ١٦٠٠ بيت ثم تلا ذلك بقصيدة أخرى طويلة فى نفس الغرض سماها « القاموس الأسنى فى أسماء الله الحسنى » تبلغ أكثر من مائتين وخمسين بيتا وتتلوها قصائد أخرى تدور حول هذا الغرض الذى يستنفذ الديوان كله ، وشعر الخليلى فى هذا المجال يأتى استيفاء لهذا التقليد واستكمالا لهذا التراث المعبد أمامه ، وهو شعر يحمل قيمة معنوية عالية باعتباره دعاء وتضرعا ، ولكنه يكتفى من الناحية الفنية بسرد الصفات وما يقابلها من أدعية :ـــ

ارفـع مـقـامـى يـا عـلـى وأعـلـه ... فى ذات وجـهـك مـشـرفـا بـسـنـائـه

واجـعـل لـقـدرى يـا كـبير مـكـانـة ... فى الـكـون تـكبر فـيـك عـن عـظـمـائـه

واحـفـظ مـكـانـى يـا حـفـيـظ مـن الأذى ... وطـوارق الحـدثـان فى غـوغـائـه

وربما كان لهذه الأدعية جوانب من المتعة يمكن أن نكتسبها فى مناخ الإنشاد والترنم أوالأداء الجماعى ، ولكنها لا تحمل نفس الخصائص عندما تتحول إلى نص مكتوب على الورق يقرأ قراءة انفرادية أو صامتة .

أما الحديث عن السيرة النبوية فانه يتم أحيانا فى شكل سرد تاريخى فى مثل قصيدة « علم النبيين » الطويلة التى تصل إلى مائة وثمانية وستين بيتا وتحمل عناوين داخلية لأسماء

---

(٢١) وحى العبقرية ، ص ٥٠ .

(٢٢) أنظر ديوان أبى مسلم البهلانى للشاعر ناصر بن سالم بن عديم الرواحى ، تحقيق على الجندى ناصف ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٤ م .

الغزوات ومراحل حياة الرسول ، والقصيدة على هذا النحو تستجيب للنزعة التاريخية والقصصية التى عرفت فى شعر الخليلى من ناحية أخرى ، ولنزعة نظم العلوم التى ألفها التراث العمانى من ناحية أخرى ، غير أنه حين يخرج على هذا السرد و يتجه إلى المناجاة يخلص له النفس الشعرى ، ويمكن أن نقرأ له أمثال هذه الأبيات الجميلة (٢٣) :

يارسول الهدى سلاما كأنفاسك اذا أنت للحياة ازدهاء
من فؤاد كأنه الطائر الموثق فى الفخ عز منه النجاء
كلما داعب النسيم جناحيه هوت باضطرابه الأهواء
أو كخيط من السمال على علياء غصن تهوى به النكباء
غرة فى علاه ماغرر الريشة فى الأفق أنه الارتقاء
فهوت مرة وطارت مرارا واختفت فهى خفة وخفاء
أوغرور الفراش فى لهب النار اذا النار ينقبها الصلاء
نزق الحب هاجس طالما طاشت لديه العقول والعقلاء

ان قافية الهمزة فى بحر الخفيف والتى عرفت منها قصائد كثيرة ، مثل :—

كيف يرقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

هذه الهمزية تكتسب مرة أخرى مع الشيخ الخليلى نفسا جديدا من خلال منهج فى الأداء لا يعتمد على السرد بقدر ما يعتمد على التصوير الموحى ، واللقطات المتتابعة التى تخدم هدفا واحدا كما حدث مع اضطراب القلب المحب من خلال الطائر الذى علق بالشراك (وهى صورة مألوفة فى التراث الشعرى) والخيط بأعلى غصن مهتز ، والفراشة تقترب من النار ، وتلك كلها صور تشف عند الاقتراب منها عن قدرة شعرية حقيقية ، تجعل إسهام الشيخ الخليلى فى مجال الشعر الدينى يتجاوز ترسم الأثر إلى الإسهام الحقيقى والإضافة .

ان بعض الأغراض الأخرى التى جاءت فى شعر الخليلى ، يميل جانب منها إلى هذه الموضوعات التى أصبحت «تاريخية» مثل الإجابة الشعرية على الأسئلة ، ونظم المسائل والألغاز ، والمراسلات الأخوانية التى تدور فى هذا الإطار ، وهى مراسلات يمتلىء بها تاريخ

---

(٢٣) وحى العبقرية ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

الشعر العماني خاصة (٢٤) و يساهم فيها الفقهاء وأهل العلم إلى جانب الشعراء ، وهناك جانب آخر من الأغراض التى طرقها الشيخ الخليلى يندرج فى ترو يض القول « واثبات العلاقة الدائمة المتجددة بالتراث ، واثبات المقدرة الشعر ية وهى ظاهرة أشرنا من قبل إليها عند الحديث عن « المقصورة » ، ويمكن أن يندرج فى هذه الظاهرة كثير من شعر المعارضات ، والتخميس ، والموشحات ، وجانب كبير من شعر الحكمة ، ولا شك أن التطور المعاصر لمفهوم الشعر وأغراضه أحدث تحو يرات كثيرة فى هذه الموضوعات مع المحافظة على قيمتها التاريخية على الأقل فى تزو يد الشاعر بثقافة ضرور ية عن تار يخ الفن الذى ينتمى إليه وعن الوسائل التى كان يتبعها سابقوه لايصال المتعة والفائدة إلى معاصريهم حسب ذوق العصر ، وإمكانية الأفادة من هذه الوسائل فى التأثير فى ذوق عصر جديد .

على أن هناك غرضين يمكن التوقف أمامها قليلا لما يمثلان من أهمية فى شعر الشيخ عبد الله الخليلى ، أولها شعر الغزل وقد حظى هذا الجانب بدراسة علمية مفصلة قدمتها الدكتورة نور ية الرومى (٢٥) واستعرضت فيها جانبا هاما من شعر الخليلى ممثلا فى قصائده الغزلية و وقفت أمام ظواهرها الفنية وطرائق التعبير فيها وملامح المحبوب المتحدث عنه ورأت أن « المرأة التى يتغزل فيها ، لا يوحى غزله بأنها امرأة محددة ، بل يعطينا صورة لامرأة عامة ، فهو مثلا لا يصرح باسمها أو يحدده ... كما أنه حين يصور جمالها ... يحشد ألفاظ الصفات الجمالية العامة حشدا ، بحيث لا يعطينا من ورائها إلا الإحساس بالجمال العام فقط ، و يستعين لوصفها بصفات المرأة الموسومة فى الشعر العربى القديم معتمدا على محصوله اللغوى وثقافته بالتراث الشعرى » (٢٦) ولأن هذه الدراسة غطت كثيرا من الجوانب المتعلقة بالغزل عند الخليلى ، فنحن نحيل القارىء إليها ، ونكتفى هنا فقط إلى الاشارة بأن شعر الغزل كان يتم اللجوء إليه إستكمالا لإ ثبات قدرة الشاعر على محاكاة النموذج القديم فى فنونه المختلفة ، ولا ننسى أن « المحاكاة » نفسها كانت مبدأ هاما لجأت إليه الآداب المختلفة وخاصة فى مراحل إحيائها فالأداب الأور بية فى عصر الكلاسكية كانت تلجأ إلى محاكاة الأدبين الرومانى والاغر يقى باعتبارهما النموذج الأمثل ، وعلى أسس من هذه المحاكاة قامت النهضة الأدبية الحديثة فى أورBا ، (٢٧) وكذلك كان الشأن فى بداية نهضة الشعر العربى فى العصر الحديث فى القرن الماضى حيث مر بمراحل من المحاكاة أو التقليد يتحدث

---

(٢٤) انظر نماذج كثيرة فى كتاب : شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء وشعراء عمان ، محمد بن راشد بن عز يز الخصيبى — وزارة التراث القومى والثقافة سلطنة عمان ، ١٩٨٤ م .

(٢٥) ظواهر فنية فى غزل عبد الله الخليلى ، دراسة بقلم د . نور يه الرومى قسم اللغة العر بية — جامعة الكو يت — مجلة البيان الكو يتية ، العدد ٢١٦ ، مارس ١٩٨٤ م .

(٢٦) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢٧) انظر : الأدب المقارن د . محمد غنيمى هلال . ص ١٧٤ وما بعدها . دار نهضة مصر ، ١٩٧٧ م .

عنها العقاد عند الحديث عن محمود سامى البارودى حين يقول : « فى الابتكار من دور الركود والجمود فى الشعر إلى دور النهضة والأجادة أربع مراحل .... أولها دور التقليد الضعيف ، أو التقليد للتقليد ، وثانيها ، دور التقليد المحكم أو التقليد الذى للمقلد فيه شىء من الفضل وشىء من القدرة ، وثالثها ، الابتكار الناشىء من شعور بالحرية القومية ، ورابعها الابتكار الناشىء من استقلال الشخصية أو من شعور بالحرية الفردية » (٢٨) .

والواقع أن غزليات الشيخ الخليلى ، يمكن أن تقع فى المستوى الثانى من المستويات التى أشار إليها العقاد ، واذا كان كثير من الشعر الجيد فى هذه الفترة ، يمكن أن يقع فى هذا المستوى ، فان غزليات الشيخ الخليلى تحتاج إلى إشارة من زاوية أخرى ، فهو إلى جانب كونه شاعرا ، فهو فقيه وقاضى و ينتمى إلى أسرة ذات عراقة دينية ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبدع غزليات قد تكون غير متوقعة لدى القارىء المعاصر الذى لم يطلع على الثقافة القديمة و يعرف كيف كان إسهام الفقهاء أنفسهم فى صياغة « الكلام الجميل » فنيا دون تحرج من بعض دلالاته المباشرة والتى قد يقف عندها من ليس عنده بصر كاف بمذاهب القول ، ورموز الغزل والشراب كانت شائعة فى شعر التصوف الإسلامى ، وإسهامات فقيه جليل مثل ابن حزم الظاهرى فى كتاب « الحب » من خلال كتابه « طوق الحمامة فى الإلف والألاف » ذات شهرة خاصة فى هذا المجال .

فى هذا الاطار تخرج غزليات للشيخ الخليلى ، بعضها يشف عن الثقافة الدينية بوضوح فى مثل قوله فى قصيدة « الحبيب المتقلب » :—

يا حبيبا كلما قلت دنا	دنت الساعة وانشق القمر
واذا باعدت أو قلت ابتعد	عن سبيلى ، قيل : سحر مستمر
ولكم أنذرنى ما يتقى	فتعاميت ، ولم تغن النذر
هكذا الحب ، فهل من زاجر	يصدع القلب ، وهل من مزدجر
يا الجدى لفؤادى انه	بات مغلوبا عليه فانتصر
يا القلبى لا يروعك الهوى	انه يجرى بأمر قد قدر

وواضح تأثير فواصل سورة القمر فى القرآن الكريم على قوافى الأبيات التى يتحرك المعنى تبعا لها ، وتستقطب اهتمام القارئ كله ، لكننا فى مواقف أخرى يمكن أن نجد عند الشيخ صورا تقترب من صور الحب العذرى ، الذى عرفه الشعر العربى فى العصرين الأموى والعباسى ،

---

(٢٨) عباس محمود العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، ص ٨٩ — كتاب الهلال ، ١٩٧٢ م .

وأخذت ثلة مشهورة من شعرائه مثل قيس بن الملوح وكثير عزة تقدم نماذج يحتذيها الشعراء فى العصور التالية حتى وان لم يمرا بتجربة الحب العذرى ومن هذا التصور نجد عند الشيخ الخليلى نماذج مثل قوله :ـــ

شقيق الهوى ان كنت لا تتقى الهوى ... فانى أخشى أن نصاب على عمد

هلم بنا نمشى رويدا لعلنا ... نصادف أثناء السرى منية القصد

نداجى الهوى حتى يلين قياده ... فنشكو إليه ما نعانيه من جهد

شقيق غرامى اننا توأما هوى ... رضعنا لبان الحب شهدا على شهد

نروح ونغدو حيث لبنى وقيسها ... جبارى بلا وعى نشاوى بلا رشد

وعلى هذا النحو يمضى النص ، وتمضى نصوص أخرى عند الشيخ الخليلى ، يمكن أن تنسب بسهولة إلى تقليد نماذج شعر الغزل العذرى ، لكن الشيخ يدرك أن الغزل العذرى لا يمثل كل تراث الغزلين من الشعراء ، وأن هناك نمطا آخر لا يقل تألقا وشهرة ، وهو الغزل الحسى وغزل المغامرات الذى تتألق فيه نماذج امرىء القيس فى القديم ، وعمر بن أبى ربيعة ، و يشع حوله شعر تقاليد الفتوة والبادية ، ومن ثم فهو يهم بدوره فى هذا المجال فى نصوص يبدو فيها الغزل الحسى واضحا فى مثل قوله من قصيدة بعنوان : « من قصص الماضى » ـــ وقد حرص الشاعر على أن يضعها فى باب الشعر القصصى لا فى باب الغزليات (٢٩) :ـــ

تقول وقد زرتها مرة ... وللأنس من بيننا مسرح

يكاد السرور يطير السرير ... من تحتها والهوى يسطع

ويلثمنا الحب عن وردة ... يضوع بها السر اذ تنفح

ويرشفنا عن رحيق اللمى ... على مبسم بالرضا يطفح

حبيب تناوم فوق السرير ... يحدق فى الأفق لا يبرح

هناك وقد شعشعت خمرة العنا ... ق وطير المنا يصدح

رضاب هو الأرى لكنه ... يمج السعادة اذ يطفح

حبيبان لفهما الوصل فى ... غلالته والشذا ينضح

إن أمثال هذه النماذج عندما تعود إلى مصادرها الأصلية فى التراث ، تجد تفسيرا أوضح ، لتجمعها وتناقضها أحيانا فى ديوان عصرى كديوان الشيخ الخليلى واذا كانت بعض القصائد

---

(٢٩) وحى العبقرية ، ص ٤١٦ .

الغزلية عند الشيخ الخليلي تأخذ عناوين عصرية مثل « سمراء النيل » و« بين العيد والمدرسة » فان المعالجة لا تجعلها تفترق كثيرا عن النماذج التى أشرنا إليها .

أما مجال الوطنيات عند شاعرنا فهو يكتسب بعدين ، يمثل واحد منها المفهوم القديم فى شعر الانتساب إلى أرض وقبيلة ، وهو ما كان يتمثل غالبا فى شعر الفخر ، وهو يبدأ عنده من درجات الفخر الشخصي الذى كان مألوفا عند القدماء فى مثل قوله :—

لقد صُنت نفسى عن مظنة سيىء	وجشمتها مالو تجلى لحيرا
فقمت ولى من نير العقل صاحب	وعدت وعينى ما تعاين قيصرا
أروم بنفسى همة لا يرومها	عداى ولو كانوا على الموت أصبرا

و يبدو هذا الفخر معتدلا اذا قيس بنماذج أخرى فى التراث العمانى نفسه لعل أبرزها فى هذا السياق ، فخريات سليمان بن مظفر النبهانى التى تتناثر فى مواطن كثيرة من ديوانه (٣٠) ، بل ان فخريات بعض المعاصرين من الشعراء العمانيين الذين يكتبون على النمط القديم تتسم بكثير من روح المبالغة اذا قيست بما يكتبه الشيخ الخليلي .

على أن هذه الفخريات عنده تتجاوز كثيرا الحديث عن الذات إلى الحديث عن الأهل والوطن ، فيجىء على لسانه قصائده مثل « عمان فى أحسن السلوك » أو « عمان فى سجل الدهر » والأخيرة أعطاها هو عنوان ملحمة تاريخية ، وساقها فى نحو ثلاث ثمانة بيت على قافية واحدة ومن بحر واحد وقسمها إلى عناوين داخلية للعصور المتتالية التى مرت على عمان منذ عهد الجاهلية حتى الآن وسمى الملوك والأمراء وحدد المواقع والمواقف وأشفع الرد بتعليق شعرى فى المواقف المختلفة ، وواضح أنه تأثر بأحمد شوقى فى قصائده التاريخية التى كان لها رنينها فى النصف الأول من هذا القرن ، لكن الواقع أن قصائد شوقى ، وقصائد الشيخ الخليلي أقرب إلى الشعر التاريخى أو إلى نظم التاريخ منها إلى الملحمة بمعناها الفنى الذى تعهده الآداب المختلفة منذ عصور بعيدة (٣١) .

---

(٣٠) انظر : ديوان النبهانى ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨ .

(٣١) يعرف النقاد الملحمة بأنها قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التى تبوئهم منزلة الخلود بين أبناء وطنهم ، و يلعب الخيال فيها دورا كبيرا ، اذ تحكى على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال وما به سموا عن الناس ، وعنصر القصة واضح فى الملحمة ، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التى يستلزمها تسلسل الأحداث ، ولكل ملحمة أصل تاريخى صدرت عنه بعد أن حرفت تحريفا يتفق وجو الخيال فى الملحمة ، وهى محكية لشعب يخلط بين الحقيقة والتاريخ مما يسيغ أن تحدث فوارق العادات وأن يتراءى الأنس والجن أو الآلهة :
انظر : د . محمد غنيمى هلال . النقد الأدبى الحديث ، ص ٩٠ — دار نهضة مصر ، ١٩٧٧ م .

على أن هناك بعدا آخر فى وطنيات الشيخ الخليلى يتمثل فى توسيع مجال الحديث عن الوطن ، ليشمل الوطن العربى كله ، وهو اتجاه تأصل عند كثير من الشعراء العمانيين المعاصرين للشيخ الخليلى ، من أمثال السيد هلال بن بدر البوسعيدى (٣٢) ، وكذلك الأستاذ عبد الله الطائى الذى كانت له تجربة اتصال واسعة ، مع كثير من البلاد العربية ، وأثر هذا على أدبه الشعرى والقصص (٣٣) ، وفى هذا الأطار تجىء قصائد الشيخ عبد الله الخليلى لتمتد مواطن الاستلهام والتعاطف فيها إلى أجزاء مختلفةمن الوطن العربى ، سواء تمثل هذا التعاطف فى المؤازرة فى اللحظات الدقيقة أوفى الاشادة بالماضى الحضارى التليد ، أو الحاضر الذى تقر له العين ، وهو عندما يكون فى مصر يحس أنه لم يغترب عن وطنه رغم أن الدار تأت به ، و يقول مخاطبا مصر :—

رفقا بنائى الدار يا مصر	ان لم يكن لك عنده إصر
وطن العروبة أنت لى وطنى	أنى اتجهت وأنت لى مصر
إنْ أنأ عن وطنى إليك فلا	ألم لفرقته ولا ضور (٣٤)

وعندما يزور الشام يروعه جمال لبنان وبهجته ، وسحر طبيعته التى تستنهض قوى الفن والعاطفة ، فيسترجع بها ومعها لحظات الطرب فى مخزونه الثقافى :—

أنشر بساط الريح فوق الريح خطا مستقيا
وانزل على لبنان من فوق الجليد هدى كريما
انشده من أوتار معبد غنوة حتى يهيا
واستخف ما بين الغصون وداو بالزهور الكلوما
وارفع عقيرة شاعر تخذ الخيال له قديما
راعته من لبنان بهجته وقد فاضت شميا (٣٥)

---

(٣٢) انظر ديوان السيد هلال بن بدر البوسعيدى ، تحقيق محمد على الصليبى ، حيث خصص باب فى الديوان سمى باب « استنهاض الهمم وشحذ العزائم وحب الوطن ، وفيه قصائد عن مصر والعراق وفلسطين ، وزارة التراث القومى والثقافة ، ١٩٨٩ م .

(٣٣) أنظر ، بحثا لنا بعنوان : « عبد الله الطائى وآفاق الشعر العمانى المعاصر » ، مجلة ، دراسات عربية وإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٩ م العدد ٩ .

(٣٤) وحى العبقرية ، ١٩٥ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

وكذلك كان شأنه مع الجزائر التى غنى لها أغنية من وحى كفاحها (٣٦) ، وكذلك تونس التى كتب عنها قصيدة بعنوان من وحى تونس (٣٧) .

والخليلى بهذه المثابة يؤكد اختياره لموضوعات قصائده الوطنية ، ومعالجته لها محور القضية التى يدور حولها حديث التطور عنده ، من أنه يمتد جذوره إلى أعماق التراث ، و ينسج على منوال موضوعاته التقليدية ، فخرا بالذات أوبالجمالية المحبطة ، ثم يحاول تعميق هذا الاتجاه من خلال وطنيات القصيدة التاريخية ، ثم يحاول أن يوسع الدائرة تجاو با مع مفهوم القصيدة الحديثة للوطنيات ، فيمتد بها إلى إطار العالم الواسع من حوله .

ان هذه السمة الثنائية التى لاحظناها فى مناخ ميلاد القصيدة وفى مستو يات لغتها المتفاوتة وفى موضوعاتها المختلفة . تساندها ظواهر مماثلة فى شكل القصيدة الموسيقى ، وشكل الوحدة الذى ينتظم اطارها الخارجى أولاينتظم ، وفى لون الصور التى يتم اللجوء إليها بين صور جزئية متفرقة على الطر يقة التى شاعت قديما ، أوالصورة الكلية النامية على الطر يقة التى تستر يح لها القصيدة الحديثة ، ثم فى شكل وسائل التز يين والتوشية ، والتى يتم فيها أحيانا اللجوء إلى وسائل قديمة مثل التأر يخ بالشعر والمحسنات البديعية بألوانها المختلفة ، واللجوء إلى التكرار فى مطالع الأبيات المتتالية ، وهى ظاهرة يفرط فيها الشيخ الخليلى فى بعض الأحايين .

فمن المألوف أن نجد فى مراحل شعره المتقدمة هذا النوع من تعمد الجناس فى مثل قوله :ــ

وساقه الحب إلى حبه ... وساقه لكنى إلى النحب
وبزه ما قد تجلى له ... فعزه الصاحب بالجنب

أوإلى التور ية التى تشيع فى شعر الفقهاء والنحاة فى مثل قوله :ــ

يا سيدى عبدك فى ذلة ... يدعوك بين الخفض والنصب

أوأن ينسج بيتا يلاحظ فيه القيمة العددية للحروف وهوما يعرف بالتأر يخ بالشعر فى مثل قوله مؤرخا لعدد جيش المسلمين فى غزوة بدر:ــ

فى جيش بدر وهو عد حروفه ... نزل القضاء لكل غاو يصرع

فكلمة (جيش) من الناحية العددية تتكون من حرف الجيم وقيمته ٣ وحرف الياء وقيمته ١٠ وحرف الشين وقيمته ٣٠٠ ، فيكون المجموع ٣١٣ وهوعدد المسلمين فى بدر.

---

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

أو أن نجد التكرار فى مطالع الأبيات المتتالية لجملة معينة ، مثل تكراره لكلمة « ان كان حب الهامشى » احدى عشر مرة متتالية ، وهو نهج يتلاءم مع القصيدة المسموعة والمغناة أكثر من تلاؤمه مع القصيدة المقروءة ، وكذلك تكراره لكلمة « هى الملة » عشر مرات متتالية فى قصيدة « إلى رجال الاستقامة » وهى قصيدة تشيع فيها هذه الظاهرة (٣٧) ، حيث نجد أيضا جملا مثل « أولى الحق » و« خليلى » و« أفى الدين » وغيرها تتصدر أبياتا كثيرة متتالية .

ولا يعدم القارىء أيضا هذه الروح القديمة « توجيه الخطاب » سواء تمثلت فى ذلك التوجيه الوعظى الذى يخاطب السامع فيجذب انتابهه فى بدء القصيدة و يستخلص النتائج فى نهايتها ، أوفى لون من ذلك التقليد الغزلى فى مثل قوله :

معزّ ينى باللوم فيا أرومه	لك الويل ما أناك عنى وأنانى
سلى همتى والسيف والدرع والقنا	فما كان أدراها بحالى وأدرانى
سلى الدين والدنيا ، سلى الحكم والتقى	سلى الشرف الأسمى العادى الشانى (٣٨)

فالمقطع كله بصيغة ومحتواه ينتمى إلى الروح القديمة التى تشيع فى النصوص التراثية والتى يمزج الفخر بالقيم المادية والروحية بالخطاب الموجه إلى اللائمة ، والذى يشى بروائح الرقة على هامش الفروسية ، غير أن هذا المنهج ــ كما أشرنا من قبل ــ يأخذ أحيانا شكل الوعظ المباشر ، وخاصة فى القصائد الوعظية والفقهية ، وفى لحظات البدء والختام فى مثل قوله (٣٩) :ــ

والناس أما سيد أوسوقة	فانظر لنفسك ما الذى تتخير
عمل يزينك أويشينك فى الورى	وكلاهما مما تبيت تدبر
واليك يرجع ما فعلت حقيقة	فاختر لنفسك ما تراه يجدر

هذه الظواهر التى تنتمى فى مجملها الى الروح القديمة فى بناء القصيدة ، يتم تطورها فى جانب كبير من الانتاج فى الفترات اللاحقة ، فيأتى البناء اللغوى أكثر تركيزا على « الفحوى » منه على الشكل ، مع عدم اهمال لذلك الشكل ، ومن هذا المنطلق ، تختفى ظواهر المحسنات المتعمدة ، والشعر التاريخى ، والخطاب المباشر ، أوعلى الأقل تختفى ألوانه الصارخة فى الفترات الأخيرة من الانتاج .

(٣٧) انظر ، وحى العبقرية ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

ولعل أوضح مظاهر الثنائية فى هذه القضايا ، هو موقف الشيخ الخليلى من قضية شعر التفعلية على المستوى النظرى والتطبيقى ، وقد فصلنا هذا الموقف فى دراسة أخرى فى مقدمة ديوان على ركاب الجمهور الذى كتبه من الشعر الحديث ، شعر التفعلية ، وجاء فى صورة شعر قصصى (٤٠) .

أما مجال وحدة القصيدة ، فمع أن النمط السائد فى ديوان وحى العبقرية إلى اللجوء إلى تنوع الموضوعات فى القصيدة (٤١) الواحدة وتصدير القصيدة بالمقدمة الغزلية ، فان جنوح الشيخ الخليلى المبكر إلى الشعر القصصى والشعر التاريخى واكبه جنوح إلى وحدة القصيدة من خلال اطارها الخارجى ، وقد أنهى فى ديوانه الأخير ، إلى صياغة قصص شعرية يتكون كل منها من مجموعة من اللوحات المتماسكة ، لكنه كان يجنح فى القصص أحيانا إلى ايراد قصص جانبيه على طريقة القصص العربى القديم فى كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة .

وبرغم أن الشيخ الخليلى بذل خطوات طيبة فى الاقتراب من القارىء المعاصر ، فانه كان يوحى أحيانا من خلال الأداء الرمزى أن هناك حواجز ما تزال قائمة بينه وبين متلقيه ، وفى هذا الاطار يمكن أن نتلقى هذه النفثة الهادئة التى صاغها تحت عنوان ذات الخمارين والتى تعبر عن جانب من أزمة التواصل (٤٢) .

أتلهينى الحسناء وهى مغيظة ... وأرض حياة الوغد فتعا بترقر
وتأخذ من عرض وجاهى لسانها ... كأن لم أكن بين الورى فوق منبر
وننشط فى وجهى بكل بساطة ... كأنى من بعض الفتات المخمر
وتضحك بى هزؤا ومالى مذمة ... ولكن دهرا أن رأى الفضل ينكر
وتحتقر المعروف منى تنكرا ... وتنتقص العرض الكريم وتزدرى
وتعرض إعراض الغزال تجنبا ... وتفتك بى فتك القضاء المقدر
وتشتارنى اربا وأشتارها أذى ... وتتركنى كالخاسر المتحيز

---

(٤٠) على ركاب الجمهور (مرجع سابق) المقدمة .

(٤١) انظر على سبيل المثال : قصيدة « إلى رجل الاستقامة » ص ١٠٦ من « وحى العبقرية » حيث تمتد القصيدة على مدى ١٤٢ بيتا ، منعطفة من المديح إلى الفخر إلى النصح إلى التأمل فى حال الأمة ، إلى الاشارة إلى بعض صفحات الماضى واستخلاص العظة منها ..

(٤٢) وحى العبقرية ، ١٨٧ .

ان هـذه الـنفثة العاطفية التى تلبس ثوب الغزل ، تبدو وكأنها نفثة فنية تشكو أزمة التواصل بين الـشـاعـر وقـارئـه ، ولعل الأحساس بميلاد هذه الأزمة ، هو الذى جعل جانبا كبيرا من نتاج الـشـيـخ الخـلـيـلـى فى الفترة الأخيرة ، يسعى نحو المعاصرة ، سيرا على ركاب الجمهور ، أو تحقيقا للـتـطـور الـفنى المنشود ، وهذا كله جعل من شعره نموذجا طيبا لدراسة ظاهرة معاصرة الجيلين فى الشعر الخليجى الحديث .

ملامح الشاعر بريشة القصاص
في رواية قشتمر لنجيب محفوظ

د . إخلاص فخرى *

اعتاد الأستاذ نجيب أن يقدم لنا شخصيات بعض المثقفين خلال قصصه العديدة ، كتابا وصحافيين ونماذج من المشتغلين بالفن ، لكنها المرة الأولى فيما أظن ، التى يقدم فيها شخصية شاعر ، وذلك ضمن شخصيات قشتمر . أقبلت على الرواية بشغف كبير ، فالشعر هو مجال اهتمامى الأول ابداعا ودراسة ، ومن المشوق لى أن أرى شخصية الشاعر حين تحدد ملامحها وتضع خطوطها ريشة روائى كبير ، ولا شك أن فى ذلك كسبا للشعر والشعراء ، كما أنه كسب للرواية والروائيين ، فمن المثير للاهتمام حقا ، أن نتعرف على نظرة الروائى للشاعر ولإبداعه . والشاعر بصفة خاصة ــ ربما أكثر من بقية المبدعين لأجناس الأدب الأخرى ــ تحيطه هالة من التقدير والإعجاب ، كما ينظر إليه من زاوية مختلفة ، ليس فقط لنوع إبداعه . ولكن لسلوكه اليومى وحياته العامة وحتى لغته وردود أفعاله تجاه الأحداث ، إنه بإيجاز : يختلف عن الآخرين ، و يقر له الآخرون بهذا الاختلاف و يتوقعونه .

أقبلت على « قشتمر » وكل ذلك يطوف بذهنى ، وقرأتها مرات ، محاولة الربط بين أول كلمة وبقية الكلمات حتى النهاية ، فى إلمام وشمول وانتباه لكل العلاقات بين الأشخاص والأحداث والظروف ، لقد اعتدنا أن تنتمى أعمال الكاتب الكبير إلى ذلك الأدب الذى يحتاج إلى جهد وعناية فى قراءته ، يوازيان أو يقتربان من جهد الأديب فى كتابته . وأنا لا أسعى إلى تقديم دراسة كاملة للرواية ، فذلك أكبر من طاقتى ، وإنما أكتفى بعدة ملاحظات عامة ، ثم أفرغ لدراسة شخصية « طاهر »

١ ــ قشتمر هى أول إنتاج ينشر فى كتاب للأستاذ نجيب بعد فوزه بنوبل ، وهى رواية قصيرة من حيث الحجم ، لأنها تقع فى مائة وسبع وأربعين صفحة من القطع الصغير ، ولكنها

* ــ مدرس الأدب الحديث بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا .

قصة قصيرة طويلة من حيث النوع ، لأنها تقدم قطاعا طوليا من الحياة ، ينقل إلينا التجربة عبر مجموعة متتابعة من اللحظات الزمنية والنفسية ، تمضى كلها فى اتجاه واحد — للأمام — سواء بالأحداث أو بالمواقف ، و يشبهها الناقد الكبير المرحوم أنور المعداوى بالمجرى « الرئيسى للنهر حين يندفع إلى الأمام وحده بغير روافد ، بغير تلك القطاعات العرضية التى تصب فى المجرى وتكثفه ، وتضاعف من قدرته على التدفق » (١) وتلفتنا للوهلة الأولى كثرة الأخطاء اللغوية والتعبيرية المتناثرة عبر الصفحات ، ومن الطبيعى أن الكاتب فى لحظات الإبداع يكون مشغولا بالفكرة والحدث والتكنيك الفنى ، فتند عن قلمه هفوات ، ولكن من الطبيعى أيضا — ومن المفروض — أن يقرأ عمله متكاملا ليخلصه من الشوائب

٢ — تبدو القصة باهتة ، بلا ملامح أو سمات خاصة ، والشخصيات متشابهة إلى درجة يصعب معها التمييز بين الشاعر المثقف ، والمحامى الناجح ، والشاب العابث ، والخردواتى الذى انصرف إلى جمع المال مكتفيا بالصحيفة أحيانا ، وكذا يخلو أسلوبها من ذلك التوهج والتألق وحيوية الحوار الذى ألفناه من أديبنا ، وخاصة فى الأعمال المتعددة الشخصيات « كثرثرة على النيل » إن القصة تصور قطاعا من الناس أو المجتمع تصويرا فوتغرافيا ، يكتفى بالسطح الظاهر فقط ، ولاشك أن الكاتب كان بوسعه أن يوظف هذا التصوير اجتماعيا ، فيحرك لدى قارئه شعورا معينا ، فيما لو خلع عليه بعض الحرارة و بعض النبض ، ولم يعرضه بهذا الحياد التام ، فيفقدنا أى حماس مع أو ضد ، لو أعمل فيه قلمه فانتقى واختار ، حذف وأضاف .

ألسنا نقرأ لكى نرى عالما يتسم بالنظام والاستقرار ؟ وإذا اختار القاص أن يقدم الفوضى والاضطراب ، فإن ذلك يتم لهدف فنى و برؤية خاصة ، غير أننا نفتقد ذلك الهدف ، ولا نعثر على تلك الرؤية فى قشتمر .

٣ — وقد ندهش للاموقف الذى نخرج به من القصة ، هذا الخوف والتوجس الذى يغلف آراء الأبطال ، حتى ليتحرجون عن نصح أحدهم والاعتراض عليه حين يقدم على تكرار الخطأ « وغلب علينا الفتور لحرصنا الأكيد على سعادته وتمنينا أن تكذب الظنون » ص ١١٦ ولم يوافقه أحد منا على أسلوبه ، ولكننا تجنبنا تكدير صفوه بمعارضتنا ص ١٢٢ وهذا الحياد والتوجس من التصريح برأى أو انتماء واضح هو السبب فى عدم ورود أية اشارة بالرفض أو القبول عن فلسطين أو الجزائر أو اليمن أو لبنان ، ولا أقول عن كمبوديا أو فيتنام .

أليس عجيبا أن يجتمع خمسة من الأصدقاء ، تربطهم علاقة وثيقة من الطفولة إلى الهرم ، و يتدرجون فى التعليم من الثانوية إلى الليسانس ، وهم مثقفون يقرأون فى نهم وفى شتى مجالات

---

١ — كلمات فى الأدب ص ١١٥ .

الثقافة ، كل ذلك .. ثم لا يرد على لسان أحدهم تعليق أو رأى حول حدث أو خبر ، مما يدور فى العالم ، أقصد خارج مصر . أما فى داخل مصر فقد حرص المؤلف حرصا شديدا على ألا يقدم رؤية معينة أو وجهة نظر واضحة عن السياسة أو نظام الحكم ، عن الحب أو العمل أو المال والثقافة .. لا يقول شيئا عن أى شىء ، لأنه جمع بين المتناقضات ، فألقى بقارئه فى مهامه الحيرة والتردد ، مدح الملكية وذمها ، وأعجب بالثورة ثم لعنها ، أشاد بالزعماء حينا ونال منهم حينا آخر ، فرح بالنصر ثم قلل من شأنه .

وقد يقال فى تبرير ذلك أن الاستاذ نجيب أراد تصوير الحالة التى كان عليها المجتمع عقب النكسة ، حالة الشك والحيرة والبلبلة ، حالة اللا سلام واللا حرب ، الجمود العاجز اليائس ، وكنا أيامها بالفعل ، نتنقل بين الرأى وضده فى اليوم الواحد — أفراداً وجماعات — إلا قلة محدودة ظلت على يقينها وقوتها ، فإذا كانت تلك حالة المجتمع عقب الهزيمة ، فماذا عنه قبلها ؟ قبل الثورة وأثناءها ، وكذلك بعد وقوع الحرب ، وانقشاع الغمة بالنصر ؟ وإذا كان ذلك التخبط حادثاً فى مجال السياسة والمجتمع ، فماذا عما هو حادث على المستوى الفردى ؟

وربما قيل إن المؤلف من حقه أن يورد آراء متعارضة ، حين يقدم عدة شخصيات متنوعة مختلفة ، ولكن أليس من حق القارىء أن يجد رأيا غالبا أو موقفا واضحا ؟ وهل يحتفظ الأديب — إذا التزم الحياد التام — بإعجاب متلقيه وجاذبية أدبه وحرارته ؟ ..

٤ — و يلفتنا فى « قشتمر » أن الكاتب يلجأ إلى تبرير الفشل بالقدر وسوء الحظ : إن صادق صفوان يتزوج ثلاث مرات و يفشل فى الجميع و يعلل المؤلف ذلك بسوء الحظ ، فإذا تغاضينا عن الزيجة الأولى لأن الزوجة مرضت فأين سوء الحظ فى الثانية والثالثة ؟ .. انه سوء الاختيار الراجع إلى نظرة المؤلف وأبطاله للمرأة : فهو يصورها بصورة تقليدية بحتة ، ليس لديها ما تهبه للرجل سوى الجمال الشكلى والشباب سواء كان زوجا عاديا أو حبيبا — جاهلا أو مثقفا — وحتى عندما قدم كاتبنا نماذج للمرأة العاملة أو المثقفة من ممرضة ومدرسة وشاعرة ناقدة ، فانه لم يكمل رسم الصورة ولا أجاد تحديد ملامح الشخصية ، وانتهت تلك النماذج إلى المصير العادى للمرأة الجاهلة من فشل فى الزواج بعد فتور النزوة التى يسميها المؤلف حبا ، فالحب عنده وعند أبطاله جاذبية جنسية بسبب الشكل الخارجى بلا أى بعد روحى أو فكرى .

ولئن كان تعاطى المخدرات وشرب الخمر والمغامرات الجنسية قد أصبحت من الثوابت عند أديبنا الكبير ، فانها تبدو فى « قشتمر » لدى « حمادة » غير مبررة ولا مقبولة . لم يكن فى نشأته ما يدفعه لهذا الطريق الذى سار فيه ، إن الفشل فى الدراسة والثراء المفاجىء ليسا كافيين لتبرير هذا السلوك ، خاصة وأنه كان ذا ميول ثقافية ونهم للقراءة ، وأسرته متماسكة إلى حد كبير ، لكن المؤلف يسوق انحرافه على أنه قضاء وقدر ولم يحاول تعليله أو تحليله أو إلقاء أى لوم عليه .

٥ــ ونحن فى « قشتمر » نلتقى بالنتائج التى لم تسبقها أية مقدمات يمكن أن تمهد لها أو تشى بها ، أقصد وجود تضارب وتعارض بين المواقف ، فرغم الذكاء البادى على طاهر منذ الطفولة الباكرة من إقبال على القراءة وسرعة تعلم الفرنسية وحب المحفوظات ، نفاجأ بأنه لولا اسم والده الباشا لرسب فى امتحان القبول للابتدائى .

ورغم الدكتوراه من النمسا عند الأب ، والثقافة الواسعة والاطلاع على الأدب الفرنسى لدى الأم ــ رغم ذلك ــ فاننا نجد هذا التعنت الغريب فى الوقوف أمام موهبة الابن وميله للشعر والأدب ، والاصرار العجيب من الأب على ادخاله الطب رغم مجموعه الضعيف فى البكالوريا .

٦ــ وفى « قشتمر » قد يطلق المؤلف أحيانا حكما أو صفة لاتوافق موصوفها إذا راجعنا سجل حياته : مثل قوله عن والد طاهر فى مرضه « يطوى الفصل الأخير من سجل حياته : الشامخة » فأى شموخ ؟

طبيب عادى فى موقع إدارى لايبدى أية عبقرية طبية ، ثم هو موظف قانع بوظيفته يطبق النظام الوظيفى بلا أى طموحات ، وهو يلتزم بالأسرة الاستقراطية من حيث العزلة عن كل نشاط اجتماعى أو سياسى ، فشل فى التفاهم مع ابنه الوحيد وطرده من البيت لأنه لم يحقق حلمه فى أن يكون طبيبا .... فأى شموخ يقصده المؤلف ؟..

٧ــ شخصيات القصة من النوع الذى يقال عنه : ذو المستوى الواحد(٢) أو السطحى إن الشخصية تمضى فى مسار تسجيلى فتظل كما هى من الطفولة إلى الكهولة بلا أى تطور أو نمو ، نفس الآراء والمواقف ، نفس ردود الأفعال تجاه الأحداث ، بل حتى نفس الأخطاء تتكرر مرات ، كل واحد يولد و يتعلم و يعمل و يتزوج أولا ، و ينجب طفلا أو طفلة أو الاثنين ، حياة روتينية عادية بلا ارتفاعات أو انخفاضات بلا صراع مع بعضها أو مع العالم الخارجى ، و بلا صراع داخلى بين المبادىء المتعارضة والمواقف المتباينة ، باختصار دون تركيب أو تعقيد أو تشابك يضفى عليها حياة ونبضا ، وكذا تمضى الأحداث فى مسار واحد دون روافد تعمقها وتكثفها فتزيدها حدة وقوة .

حتى عندما تعرض الشاعر لأزمة مع والديه انتهت الأزمة فى موقف واحد بمناقشة حاسمة . وحين تعرض الشاب العابث « حمادة » لأزمات متنوعة لم يفد الكاتب من تلك الأزمات فيدير صراعا ناميا أو حوارا متدفقا . ولنتعرف على شخصيات القصة بإيجاز حتى نصل لبطلنا : إنهم خمسة ، أولهم المؤلف وهو من العباسية الغربية ــ الحى الشعبى الفقير ــ ولكنه خارج الموضوع ولايقدم لنا أية معلومات عن نفسه ، هو فقط يروى و يعقب على الأحداث والأشخاص ، ومعه من ــ العباسية الغربية ــ اثنان هما :

٢ــ النقد الأدبى الحديث . محمد غنيمى هلال ص ٥٧٤ .

صادق صفوان الذى اكتفى بالبكالوريا وافتتح محلا للخردوات ثم صار من الأغنياء ، وإسماعيل قدرى الذى كان متفوقا فى دراسته حتى البكالوريا فتوقف لموت والده وتوظف فترة ثم أكمل دراسته فى الحقوق واشتغل بالمحاماة ، والاثنان الآخران من ـــ العباسية الشرقية ـــ حى الموسرين والباشوات أولهما حماده الحلوانى ابن صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية فى مصر ، وترك الجامعة بعد وفاة والده وحصوله على ميراث كبير أنفق منه على شهواته ومباذله ، والثانى هو « طاهر عبيد » نجل عبيد باشا الأرملاوى الذى يحمل دكتوراه من النمسا ، وهو مدير للمعامل بوزارة الصحة ، يلوح متعاليا متباعدا ـــ رغم أنه ليس واسع الثراء ـــ فيشعر من حوله بالدونية ، و يأنف من العامة ، عاش حياة الموظف التقليدية حتى أحيل للتقاعد فأنشأ عيادة للتحاليل . وبعد سنوات أصيب بمرض خطير فى المثانة ، وأسلم الروح فأقيمت له جنازة كبيرة كما رثته الصحف بما يلائم منصبه السابق .

ولعل أكثر ما يهمنا فى شخصية الأب هو الجانب التربوى أو طريقة رعاية الابن وتوجيهه وهنا يصادفنا العجب ، إن الأب الذى درس فى النمسا ، وفى بيته مكتبة ضخمة تعمر بثمار الفكر والأدب بالاضافة إلى المراجع العلمية ، والذى تزوج من خريجة المدارس الفرنسية ومثقفة ثقافة عالية فى شتى مجالات المعرفة ، هذا الأب يسلك مع ابنه مسلك أب متوسط الثقافة أو جاهل تماما ، لقد اتفق مع الهانم على أن يجعلا من ابنها الوحيد (لاعبرة بأختيه) شخصا رفيع المقام ، وحصرا رفعة المقام فى أن يكون طبيب مصر الأول .

وهو يلاحظ حب ولده للشعر وحفظه ، وطلب من أمه أن تشرح له ما يصادفه من أبيات فى المجلات فيعلق قائلا : الولد ذكى وسيكون طبيبا مدهشا صـ ١٢ وحين يتقدم الابن فى تعلم الفرنسية و يبدأ أولى محاولات النظم ، يفرح الباشا بذلك و يعده ذكاء مدخرا للطلب . وحين تنشر أولى قصائده فى مجلة شهيرة يقول الأب فى امتعاض :

هذا شغل أدباتيه ولا يليق بمقامك ، فإن قال الابن : ولكن شوقى بك شاعر يا بابا ، يكون رد الأب غريبا جدا : « أن شوقى أمير من البيت المالك أولا وأخيرا أما الشعر فحرفة الشحاذين صـ ٣٨ وهنا نسأل : كيف لا يتنبه إنسان مثقف بلغ هذه الدرجة من العلم وسافر للخارج ، الى الذكاء النوعى واختلاف القدرات ، فالطفل الذى يتفوق فى اللغات ويميل إلى الأدب والشعر لا يمكن أن ينجح فى دراسة الطب . وكيف يعتبر هذا الإنسان المثقف الشعر حرفة الشحاذين وفى عصره نبغ عدد كبير من الشعراء ، ثم هل ينتسب شوقى إلى البيت المالك حقيقة ؟ ... لقد كانت جدته أسيرة حرب المورة فكيف صار أميرا ؟ ...

أظن أن شوقيا كان يرضيه ويهمه أن يكون أميرا للشعراء وليس أميرا من البيت المالك حتى لو كان . نعود للأب ، لقد تجاهل ميل ابنه للشعر وضعف مستواه الدراسى وأدخله الطب بإصرار عنيف ، ومنّ عليه لأنه أدخله بسعيه ومركزه وليس بنجاحه وإمكاناته . وكان طبيعيا أن يرسب

آخر العام ، لكن الوالد يحاكمه ، وحين يدفع الاتهام بأنه دخل الطب مرغما ، وأن مستقبله فى الشعر والصحافة يهتف الأب لهول الكارثة : « خبر أسود » صـ ٥٤ و بعد هذا الموقف غير المبرر من دراسة الابن لم يكن موقفه من زواجه غريبا ، فحين أحب « طاهر » فتاة ممرضة رفض الأب دخولها بيته فاضطر الابن إلى مقاطعة أسرته كي يتزوج بمن أحب . وظل مقاطعا لها حتى مرض والده فزاره قبل وفاته بأيام . وكما ظهرت مواقف الأب من أبنه غير متفقة مع علمه وثقافته وخبرته فى الحياة فكذلك نجد الأم ، إنها خريجة « الميردى دييه » مثقفة وقارئة وذات عقل ممتاز ، أضافت إلى المكتبة العلمية ثمار الفكر والأدب وهى قد دأبت على تعليم ابنها الفرنسية وشرح ماغمض عليه من الشعر. هى بداية توحى بالتفاؤل لكننا لانلبث أن نكتشف الحقيقة المرة ، حين نجدها توافق زوجها على كل آرائه السياسية ، وتشاركه فى محاكمة الابن لرسوبه فى الطب ، كما تتبنى موقفه المعادى للشعر والصحافة ، فأين الثقافة والعقل الممتاز والاطلاع الواسع إذا لم يسعفها ذلك فى فهم ميول ابنها الحقيقية ورد زوجها للصواب حين يفرض رغبته المستبدة على الابن ؟

لعل الأمر مرده إلى فرض المؤلف لأى دور إيجابى تلعبه الزوجة المثقة ورفضه لأن تفضل الرجل فى أى شىء حتى ولو كان فهم الابن وتربيته . وحين يطرد الابن بسبب اختياره زوجة غير ملائمة ، لاتحاول الأم تهدئة الموقف وتخفيف عنت الأب أو استمالة الابن .

إننا قد نرى فى البيئات الشعبية والمتوسطة وأحيانا لدى علية القوم : تعارضا بين رغبات الآباء وميول الأبناء ، وقد تحدث القطيعة ، ولكن لفترة محدودة ، لايلبث بعدها الآباء أن يعترفوا بالواقع و يتفهموا ميول الأبناء . فما هوتفسير التناقض بين العلم والثقافة والعقل الممتاز لدى الأب والأم و بين موقفهما من الابن ؟

ونصل إلى شخصية « طاهر عبيد » موضوعنا الأصلى ، إنه أسمر ذو ملامح شعبية يميل الى البدانة ، ومع أنه ابن ذوات فقد كان لديه استعداد فطرى لأن يصبح من أبناء الشعب ، فهو أكول بطبعه وقد اكتسب من رفاقه — أبناء العباسية الغربية — « حب الرمرمة ، فعشق لحمة الرأس والفول والفلافل والممبار والكبد والمشبك والهريسة والباذنجان المخلل صـ ٢٤ ومع تقدمه فى السن أصبحت بدانته سببا فى ازعاجه بالأمراض — أليست البدانة تتعارض مع الشاعرية أو الثقافة عموما ؟ فالمثقف يدرك ماينفعه ومايضره ، و يتحكم فى شهواته ، ثم المفروض إنه مشغول بقضايا العقل وغذائه عن رغبات المعدة وامتلائها —

ولم يشر المؤلف إلى هندامه وعاداته فى الزى إلا فى الطفولة حين قال إنه يرتدى قميصا و بنطلونا قصيرا ويمشط شعره الطويل .

وعن طباعه وأخلاقه يقول الراوى « من أحب الشخصيات إلى قلوبنا لخفة روحه و بساطته

ومرحه » صـ ١١ وقد جرب كل واحد من الرفاق أن يمارس فى المدرسة نشاطا رياضيا أو اجتماعيا أو فنيا إلا طاهرا ، و برغم أمارات ذكاء يبديها فى طفولته كإقباله على تعلم الفرنسية وحفظ الأناشيد ، إلا أنه يعبر امتحان الابتدائية بفضل اسم والده ويحصل فى البكالوريا على مجموع ضعيف .

وكنا نتوقع — اتفاقا مع العرف والواقع وتبعا لمنطق الأشياء — كنا نتوقع اختلاف شخصية طاهر وتمايزه عن الآخرين ، لأنه شاعر مثقف ، وهو الوحيد الذى يعمل فى مجال الفكر والأدب ، لكننا لا نجد أى تمايز أو اختلاف ، إنه يقع فى الأخطاء نفسها و يكرر التجارب عينها و يتحدث باللغة التى يتحدثون بها .

لقد فشل فى التوافق مع أسرته مثل حماده . وتزوج مرتين مسيئا الاختيار مثل صادق ، ومثله أيضا سعى للثراء من طريق لا يتناسب مع الثقافة والقيم ، وكما يقول المؤلف عن لغته « بل تقدمنا جميعا فى الاقتباس من قاموس الشوارع والحوارى ورصع أشعاره الأولى بألفاظها المتمردة ص ٢٤ ولنجمع ملامح الشخصية كما قدمها الأستاذ نجيب : إنه ينفى الجانب الدينى تماما لديه ، ولعل ضعف الوازع الدينى عند كثير من المثقفين مفهوم ومقبول ، وربما كانت حالة الشك التى تنتاب بعض المفكرين والمتعمقين فى الثقافة مستساغة كذلك مالم تتجاوز حدود الشك المعقول فى الغيبيات أو اهمال الفروض الدينية ، وقد كان ذلك متوقعا مع طاهر عبيد . أقصد أن يكون قليل الاهتمام بالدين ضعيف الإيمان مثلا أو متشككا فى بعض الأمور ، أما أن يأتى بالصورة التى قدمها « نجيب محفوظ » : ملحدا بلا دين تقريبا صـ ٣٢ كما يعبر سيادته فذلك غير مفهوم وغير مبرر ، فلا هو قد أورد لنا ظروفا معينة وأحداثا خاصة كرهته فى فرائض الدين ، أو جعلته يرتاب فى العقيدة ، ولا هو قد أشار أدنى إشارة إلى قراءات فلسفية متعمقة تجعله يستهين بالعقيدة و يرتاب فى الرسل والأديان . بدون مقدمات و بلا أى تبرير يأتى شاعرنا معاديا للدين كافرا بالعقيدة ساخرا من المتمسكين بها ، و يؤكد المؤلف هذه النزعة اللادينية بنفى حدوث أى تغيير فيها مع سعة الاطلاع والثقافة ، فالدين « لم يثر اهتمامه ولا شغل تفكيره صـ ٣٢ وربما كان الأقرب للمنطق أن يبحث طاهر عن الحقيقة باعتباره مثقفا ، لماذا لا يمارس والده شعائر الدين كما يمارسها الآخرون ؟ وما هو جوهر العقيدة ؟ وأين الصواب أو الخطأ ؟

يقرأ فى الدين شيئا ، وعن العقيدة شيئا ، و يقرأ فى الفلسفة شيئا ، حتى يصل فى النهاية إلى رأى يقتنع به و يتبناه . لكن المؤلف يستمر فى تأكيد انتفاء الوازع الدينى لدى الشاعر عبر مناسبات كثيرة ، الى أن يتقدم الأصدقاء فى السن ويميل أحدهم للاتجاه الروحى والتصوف فيردد بعض الأقوال الرمزية للمتصوفة ، فيتلقاه طاهر باستهانه وهو يقول ساخرا : « علينا أن نتوقع أن تجيئنا يوما مرتديا خرقة معرضا عن الدنيا ومافيها صـ ١٤٠ وتمشيا مع هذه الروح

المعادية للدين يكون انزعاجه من إشارة زوجته الثانية للتيار الديني الذى يعبر عن نفسه فى الوقت الحالى .

واتساقا مع هذا الموقف كان طبيعيا أن ينهار نفسيا وروحيا بعد فشل زواجه الثانى ومرضه فيرغب فى الموت مطالبا بأن يتاح للإنسان متى أراده .

مرة أخرى : هناك أدباء ومثقفون يضعف عندهم وازع الدين ويهملون فى أداء الفرائض والطقوس ، و يعيشون فترات شك ور يبة ولكن الأمر لا يصل فيا أظن إلى الالحاد أو الوثنية كما عبر كاتبنا .

وأما عن نشاطه السياسى فالأمر يبدو مثيرا للحيرة : أن المؤلف يقدمه لنا فى البداية محايدا تماما ، لقد تأثر برأى والده الباشا فلم يشارك فى المظاهرات أيام ثورة ١٩١٩ ونفى سعد ، وكان دائم الانتقاد لزملائه ولأحاديثهم عن الأحزاب ، ثم هو لم ينشر أية اشارة إلى الحل الذى يراه مادام غير راض عن الواقع ، وفجأة حين قامت ثورة الثالث والعشر ين من يوليو تحمس لها بشدة وأعجب بالزعيم ودافع عنه ، سنوات وحدثت الهزيمة عام سبعة وستين فانقلب يكفر بالثورة تماما .. تأرجح حاد من الشمال إلى اليمين و بالعكس .. و يبرر المؤلف حياد طاهر السابق بقوله ، وإن تكن نشأته فى فيللا الأرملاوى قد أقصته عن المجال السحرى لسعد زغلول فإنها لم تربطه بالولاء للملك ، ثم جاءت المعارك الحزبية فشحنته بالقرف والكفر بالجميع وكان يقول : « مصر جديرة بالحب ولكنها لم تجد بعد من يحبها لذاتها » صـ ٣٢ وأظن أن من حق القارىء أن يسأل مؤلفنا العظيم : إذا كان طاهر قد خرج بحكم نشأته عن مجال سعد ، وهو لم يرتبط بالولاء للملك ، ومشحون بالقرف من الأحزاب ، فلماذا لم يبحث عن انتماء آخر أكثر صحة ومناسبة لثقافته ، انتماء يعكس حبه لمصر وسعيه لخيرها وتقدمها ؟ . لا شك أنه كانت هناك اتجاهات وجماعات وطنية مخلصة تبرأ من عيوب الأحزاب السالفة ومن الولاء للملك ، فلماذا لم يبحث عنها و ينضم إليها ؟ .. كلا .. إنه بطبعه وكما أراده المؤلف باردا محايدا .. بدليل أنه حتى بعد أن التقى بمن يمثلون بعض الاتجاهات التقدمية لم ينضم إليهم . اتخذ منهم موقفا غر يبا ، وذلك حين زار مجلة الفكر التى نشرت له أول قصيدة « وهناك اكتسب علاقات زمالة جديدة ، وعرف المبادىء التقدمية من خلال نخبة من المؤمنين بها ، وتعاطف مع الإرادة الطامحة لهدم العالم القديم كله وإقامة بناء جديد موضعه على أسس علمية معاصرة ، وكأنما ود أن تبيد مع العالم القديم أفكار أبيه الكثيبه » صـ٣٨ كلام يبشر بالخير ، يعقبه هذا التعليق « لكن التعاطف لم يتجاوز حدود الصداقة للمبدأ ومعتنقية دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج فى سلوكياته » صـ٣٨ وتهتز مشاعره هزة قصيرة حين توفى سعد لأن رأى أبيه الباشا تغير فيه ، لكن الهزة لا تدوم ، فقد تصدع الائتلاف بين الأحزاب وعطل الدستور ونشب الصراع بين الوفد بزعامة النحاس و بين الملك تعاونه وزارة محمد محمود والانجليز ، وحين عاد الوفد للحكم وأشيع أنه جاء بمساعدة الانجليز « لم

يتردد طاهر عن أن يقول ساخرا ألا ترون معى أن جميع رجالنا خونة » صـ ٨٤ ونحن بالطبع لانرى معه ذلك بدليل وجود فئة مخلصة هيأت وخططت للثورة فيما بعد .

و بدلا من أن تؤرقه هموم الوطن ، وتزعجه الفوضى التى حدثت فى السنوات الأخيرة السابقة للثورة ، فيبحث عن سبيل للخلاص ، نجده مكتفيا بالنقد والتعليقات الساخطة ، مثل قوله عن حريق القاهرة « ماهذه بدولة ولكنها سيرك هزلى » صـ ١٠٤ يأتى الانقلاب المفاجىء حين تقوم الثورة ، وأقول المفاجىء لأن المؤلف لم يهىء له بأى تلميح إلى حلم الشاعر بالتغير والثورة ، وهو يعبر عنه بقوله : « العجيب حقا هو حماس طاهر عبيد ، لأول مره فى عشرتنا الطويلة نراه متوهجا متألقا كالكهرباء ، و يرقص طربا و يتغنى بالمجد ويهب قلبه وعقله بلا تحفظ ، يقول هذا حلمى الذى لم أعرف تأويله الا اليوم » صـ ١٠٥ والعجيب حقا حسب قول الأستاذ نجيب هو أن طاهراً لم يصرح مرة واحدة عن حلمه هذا ، ولم يبحث عن تأويله فى أى اتجاه ومع أية جماعة . على كل نتابع حماس طاهر الذى ملأ صدره للثورة وزعيمها « صدقونى ، إن مصر لم تعتل هذه الذروة منذ عصورها المجيدة ، كما أنها لم تشهد طيلة تاريخها هذا الرجل المعجزة » و يرد على زوج ابنته الذى يهاجم الثورة ، لاتخلو ثورة من انتهازيين ولكن بحسبها أن زعيمها رمز للكمال »

« إنه دكتاتور ياعمى » « بل إنه المستبد العادل » صـ ١١١ ، وهو تعبير مخادع وغير دقيق ، تعبير لا يصح أن يستخدمه انسان مثقف ، وكيف بالله يجتمع الاستبداد والعدل وهما نقيضان ، وكان طبيعيا أن ينبض شعره بالتأييد للثورة ومنجزاتها فانتشرت قصائده وأغانيه عبر كل أجهزة الإعلام .

سنوات ثم وقعت الهزيمة ، فإذا بطاهر المتحمس المؤمن بالثورة وزعيمها ينقلب على عقبيه . « ولكن لم يصدم أحد كما صدم طاهر عبيد ، كأنما جن جنونا أو مات موتا صـ ١١٣ وحين يخفف عنه أحد الاصدقاء » مامن أمة يخلو تاريخها من كوارث » ، يقول بصوت مهزوم : « لكن هذه كارثة الكوارث » فإذا ذكره بالأمل فى الأبناء يتساءل فى حيرة أبناء الهزيمة ، وحين يذكره صديق آخر بحبه للزعيم : « هل كفرت بالبطل» ، يصمت قليلا ثم يقول : « أعتقد أنه يموت الآن وأنا أموت معه » صـ ١١٤ وتحول شعره إلى رثاء للنفس والوطن فلم يعد يذاع فى أجهزة الاعلام ، لقد اتضح بهذا اليأس المظلم أن إيمانه بالثورة كان هشاً لم تعمق جذوره ، ولذلك رسب فى أول امتحان ، ولئن كان المؤلف ذكر تمسكه بخيط من الأمل أحيانا فى قوله بعد الهزيمة « ها هو يطهر الثورة من سلبياتها و يعيد بناء الجيش » ، إلا أنه يظهر وهن الخيط وضعف قبضة الشاعر عليه ، وذلك حين يسمع تعليق صديقه الساخر « سيزيف يصعد الجبل من جديد » ، وهو تعليق له مغزا ، فسيزيف سيعود للسقوط ثانية ، يقول المؤلف عقب ذلك « لم يعد يرد على السخرية بعد أن انكسرت نفسه وانهزمت كبرياؤه » صـ ١٢٠ وغريب حقا أن يكون الشاعر

المثقف ضيق النظرة محدود الأفق بحيث يرى فى الهزيمة نهاية للزعيم والثورة ، بل الوطن كله .. وكأن الحرب ليست سجالا ، وكأن الثورات لا تكون حقيقية إلا إذا استمرت انتصاراتها فى كل ميدان ، والزعيم لا يستحق الاعجاب والتقدير إذا تعرض للخطأ مرة ، غريب أن لا يفطن الشاعر المثقف إلى تكتل القوى الخارجية والداخلية ، وإلى احتشاد أعداء الثورة والوطن ، لا يفطن لهذا كله ويحصر سبب الهزيمة فى اخطاء القائد ، ولذلك يكفر به و يعتبره قد مات و يرى فى الهزيمة كارثة الكوارث . و برغم كل ذلك يريد المؤلف إيهامنا بأن طاهراً كان ناصريا فيقول أنه أساء الظن بالزعيم الثانى وتلقى النصر العظيم فى أكتوبر بفتور غريب فراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل ، « إنه الوحيد فى شلتنا الذى عبد الراحل فى حياته وقدس ذكراه بعد مماته » صـ ١٣٢

فإذا انتقلنا لمجال الحديث عن المرأة ومفهومه عن الحب فإن الحس الجنسى عند أبطال نجيب محفوظ يبدأ غالبا منذ الطفولة الباكرة : إن شاعرنا يقول عن شقيقتيه « لهما صديقات كالأقمار يزرنهما ويجلسن معهما فى الحديقة ، كالأقمار » صـ ١٣ وربما كانت أولى مظاهر اختلافه عن الآخرين تتمثل فى رأيه الذى أعلنه حول مغامراتهم الجنسية فى شارع كلوت بك وحول المكان نفسه فقال : « هذا معرض للنساء والرجال فى غاية الشذوذ والسوء فعلى مريده أن يفقد وعيه أولا قبل أن يقدم عليه لكنه لم يكف عن الذهاب إلى هناك » صـ ٣٦ وخاض أول تجربة حب وهو فى السادسة عشر مع فتاة تماثله فى العمر وتعمل ممرضه « بنت سمراء رشيقة الملامح فائرة الجسم ثائرة النهدين خفيفة الحركة » صـ ٣٩ وهكذا يصبح فى مجلسنا عاشقان وتتجلى فى أحوالهما أعراض السحر والنشوة ولأنه مثقف وشاعر فإن عاملا آخر غير الجمال الجسدى لابد أن يوضع فى الاعتبار ، « وسأله أحد الاصدقاء هل تفهمك كشاعر » « فقال على الأقل لا تسيء فهمى ، و يعجبنى فيها بصفة خاصة قوة شخصيتها صـ ٤٩ وحين عرف الحب قال « لعله جنون أو مرض ولكنه على أى حال يمثل السعاده فى ذروتها » صـ ٤٩

وهذا الكلام قد يشى بأمور منها أن عامل التوافق الفكرى أو جانب العقل والشخصية وضع فى الاعتبار لدى الشاعر المثقف ، ومنها أن ما لفت نظره الى فتاته ليس فقط رشاقة الملامح ونضوج الجسد وانما الشخصية أيضا ، ومنها أخيرا أن حبه ليس مجرد جاذبية جنسية يمكن أن تخبو وتموت ، و يؤكد ذلك تعليقات متناثرة عبر الصفحات منها :

« على أى حال انضم طاهر إلى حزب الاستقرار والسعادة ، وعرفنا عن طريق صادق وطاهر حبا واقعيا رشيدا ، لا كالحب الذى نشهده أحيانا فى السينما ، ولا كالحب الذى حدثنا عنه المنفلوطى ، صـ ٥٩ كان بعضنا يخاف على طاهر ردة الفعل بعد أن يخبو لهيب رغبته ، الحق أنه استمر فى حبه فدل على أنه أحب حبا صادقا وفى الوقت المناسب أنجبت للشاعر ذرية ، وثمل طاهر بالأبوه » صـ ٦٦ شيء مطمئن أن يعيش الشاعر قصة حب تتسع فى دائرتها عن إطار

الجنس الضيق ، وتستمر سنوات تبذل فيها الحبيبة ـــ الزوجة ـــ جهدا إيجابيا ، ففى البداية مارست عملها لتساعده على تكاليف الحياة وحين تحسنت حالته الماليه « قنعت راضية بوظيفة ست البيت ولكنها حافظت بمهارة واصرار على رشاقتها و بدافع من حبها واعتزازها بزوجها عودت نفسها على النظر فى الجريدة والمجلة »

« وكثيرا مايثنى على رئيفة كست بيت ماهرة وأم يقظة وزوجة محبة مخلصة ذكية ، تعرف كيف تهيء لزوجها أسباب الراحة والسعادة » صـ ٩٦

لكن المؤلف فى نفس الصفحة يبدأ فى تهيئة أذهاننا للزلزال القادم ولاشك أنها تغيرت أكثر من المتوقع فخف وزنها أكثر مما يجب ، وظهرت فى وجهها أمارات السن ولكنها ماتزال تعد جميلة ورشيقة وفائقة النشاط صـ ٩٦ و يستمر المؤلف فى العزف على ذلك الوتر بلغت رئيفة الأربعين أو جاوزتها بقليل ، ولكن العمر لم ينل من أحدنا كما نال منها ، بل قدر بعضنا أنها كانت أكبر مما حسبنا يوم زواجها ، هزلت بدرجة كبيرة جردتها من كافة مزايا الجسد الأنثوى و برزت عظام وجهها فتغير شكلها وشحبت صورتها صـ ١٠٣ و بغض النظر عن غرابة التغيير الذى حدث ، فإن فتاة فى السادسة عشر من العمر كما وصفها ، وسيدة تحافظ بمهارة واصرار على رشاقتها هذه الفتاة ـــ السيدة ـــ لا يتصور أن تفقد وهى فى الأربعين أو بعدها بقليل كافة مزايا الجسد الأنثوى وتشحب صورتها ، بغض النظر عن ذلك فليس من المتوقع أن تحدث تلك التغيرات الجسدية هزة للحب الواقعى الرشيد ، لكن الروائى الكبير يقول « أجل بقى الحب القديم كما كان ، فى الظاهر على الأقل صـ ١٠٣ .. وعلى كل حال فان يكن ثمة وفاء فمرجعه إلى الأخلاق الطيبة ، لا إلى الغرائز الراضية » هكذا ....

ولأول مرة يتنبه المؤلف إلى أنه شاعر شهير ، وكاتب معروف فى مجلة تضم آخرين وأخريات ، لأول مرة بعد انضمامه للمجلة بأكثر من عشرين عاما ، ونشر ديوانه يقول « وتساءلنا كيف يكون الحال مع الزميلات والمعجبات » صـ ١٠٣ والسؤال حيلة يتوسل بها المؤلف الى الحدث القادم « واعترف لنا ليلة قائلا موجها حديثه إلى اسماعيل بالذات : زوجتى تفوق زوجتك فى السوء . فقال إسماعيل : أعطيتا خير ماعندهما ، فقال بقسوة أصبحت أعافها » صـ ١٢٠ عجيب : كيف ينطق شاعر مثقف ، تزوج عن حب ، وفارق أسرته بسبب اختياره ،، كيف ينطق بهذا الكلام ؟ وهل كل مالدى المرأة جسد فقط إذا ذبل ضاعت قيمتها وعافها زوجها ؟ لو أن الأمر كذلك لفشلت ملايين الزيجات فى العالم .

ثم ظهر التناقض فى شخصية طاهر بوضوح شديد حين نوازن بين موقفه عندما أقدم صادق على الزواج الثانى « لعل طاهر الوحيد الذى أبدى شبه معارضة حين قال أعتقد أنه يكفى الانسان زوجة واحدة إن حرص حقا على راحة باله فقال صادق : احسان عاقلة فقال طاهر :

النساء يفكرون بقلوبهن صـ ٨٢ هو اذن يعتبر الزواج الثانى ـــ وان كانت له ضرورة ـــ يعتبره صدمه أو إهانة للزوجة الأولى ، وكذلك موقفه حين هم صادق بالزواج للمرة الثالثة بعد فشل الزواج الثانى نجد موقف طاهر معارضا أيضا ، كانت العروس فى الثامنة عشر وصادق فى الستين فقال طاهر فارق العمر كبير جدا » ، وحين قال إن الأم وابنتها تركتا له الخيار قال طاهر « فاخترت مالا يناسبك » صـ ١١٦

وتمر الأيام و يقع طاهر فى نفس الخطأ ... وأقول الخطأ لأن زواج صادق الثالث فشل تماما بعد وقت قصير وكذلك سوف يفشل زواج طاهر ، لقد تعرض لتجربة جديدة بعد أن جاوز الستين بقليل ، تعرف على زميلة بالمجلة : شابة متخرجة من قسم اللغة الانجليزية بالآداب « غاية فى الذكاء وعلى قدر عظيم من الثقافة بالقياس إلى زمانها وعمرها البالغ خمسة وعشرين عاما ، قرأت شعره وأعجبت به إعجابا شديدا » صـ ١٣٢

و يبدو أنه أحس بخطأ ما هو مقدم عليه فقال على سبيل الاعتذار : « لا يوجد فى دنيانا شىء صحيح سليم فلماذا أطالب أنا بذلك » صـ ١٣٤ سؤال غريب فالمفروض أنه ليس إنسانا عاديا ، ولكنه شاعر مثقف فهو مطالب بما لا يقدرُ عليه الآخرون . و يكرر المؤلف ما قاله عند تجربته السابقة : وقال لنا كالمعتذر « الحب هو الحب ولدى حضوره تتلاشى القوى المضادة جميعا فى غمضة عين » صـ ١٣٤ وربما يتصور القارىء أن الحب السابق لم يكن حقيقيا ولذا لم يصمد أمام الزمن والمتغيرات وأن الحب الجديد توافرت عوامل النجاح والبقاء ، ولكن كلا ... المهم نعود لاكمال ماحدث ، لقد سأله صادق : ورثينة فمط شفته السفلى ، وقال : كان لابد من المصارحة ، موقف عسير ومؤلم ، ولكنى متعود على مواجهة التحديات ، وهى موقنة من أنها لم تعد تملك ماتعطيه صـ ١٣٣ هكذا ! لاعشرة ، ولا توافق فكرى ولا ألفة روحية ، ولا اشتراك فى حب الابنة . وحين جادلته ابنته مدينة لقراره بالزواج : « بابا ما كنت أتصور» « فقال لها باسما : إنه شىء طبيعى ويحدث كل يوم ، فقالت برقة : وماما ؟ نحن مطالبون بالوفاء وهو شىء جميل كالحب » سكت ولم يعقب . صـ ١٣٤

« ولم تعده أنوار بالحب ولكنها أنعشته بذكائها وصداقتها وعشقها الصادق للثقافة بالاضافة التى تذوقها العميق لشعره » صـ ١٣٤ كل ذلك جميل . ولكن يدهشنا أن المؤلف يقول عن أنوار: ولكنه لم يعرف لها انتماء سياسيا ، « فهى تسمع وتقرأ ولا تصدق ولا تهتم و يتركز وعيها فى الشعر ونقده ومحاولة قرضه أحيانا » صـ ١٣٥

فكيف يكون الإنسان ذكيا وعلى قدر عظيم من الثقافة ثم ينحصر هذا القدر العظيم فى الشعر ونقده ومحاولة قرضه فقط دون اطلاع على مجالات أخرى للثقافة « واستجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ظروف المعيشة ، ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت فى عينى أنوار»

صـ ١٣٦ وساءت العلاقة بينهما تدريجيا ثم سافرت الزوجة للعمل فى مجلة عربية بلندن ، ورجع طاهر للبيت القديم والزوجة الأولى ، وبعد فترة أرسل لأنوار ورقة الطلاق ، هكذا فى بساطة شديدة .

وبعد .. ألا يحق لنا أن نسأل : لماذا ـــ رغم الاشادة بالحب الحقيقى الذى جمع طاهراً مع رئيفة ومقاطعته لأسرته من أجلها وإشارته لمحاولتها ارضائه واسعاده ، بل وعاش معها بالفعل سنوات طويلة من الوفاق ـــ لماذا لم يبذل أى جهد لتقريبها من عالمه واستمالتها لدنياه ، لماذا لم يأخذ بيدها فى طريق الثقافة والأدب لتكون أكثر فهما له وقربا منه ؟ لماذا حين ولى شبابها وبهت جمالها استدار عنها مستجيبا لنداء الغريزة الحمقاء وهو بعد الستين من فتاة فى الخامسة والعشرين ؟ ولماذا بعد أن أفاض المؤلف فى الحديث عن ثقافتها وذكائها وإعجابها الشديد بشعره وشخصيته ، فشلت التجربة ؟

أحد أمرين : اما أن الحب لدى المؤلف وأبطاله مجرد رغبة وقتية وجاذبية عارضة تزول بزوال عامل الجذب من الشباب والجمال أو الإبهار السريع ، وإما أن الأبطال سريعو التقلب والتغير بين يوم وآخر بلا تبرير .

بقى لنا حجر الأساس فى شخصية الشاعر ، وأهم ما يمكن أن نبحث عنه ، وهو ثقافته ودلائل موهبته الشعرية . ، ولا يولى الكاتب الكبير عناية كافية ـــ فيما أظن ـــ للملامح الثقافية عند شاعرنا ، لقد ترك الدراسة المنتظمة بعد رسوبه فى السنة الأولى بكلية الطب ، وفى المنزل تعلم الفرنسية من أمه ، وبرغم وجود مكتبة فخمة لكنه لم يتمكن من الإفادة الكاملة منها إذ غادر البيت وهو فى سن التكوين الفكرى والثقافى . واتجه إلى الرواد : شوقى وحافظ ومطران ويشير المؤلف إلى إقبال الأصدقاء على المجلات الاسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة كإنتاج المنفلوطى والعقاد وطه حسين والمازنى وهيكل وسلامة موسى ، وعن طاهر خاصة يقول : ونهل من كتابات الرواد فلم يقتصر اطلاعه على الشعراء الثلاثة أو مختارات أبى تمام والبحترى ، وقال لنا :

« عما قريب سأقرأ بالفرنسية » صـ ٣٢ ويؤكد على غياب المصدر الدينى فى ثقافته « ولم تضف الثقافة الحديثة جديدا إلى عقيدته » صـ ٣٢ وليس المصدر الدينى فقط هو الغائب ، وإنما لم يشر المؤلف الى أى مصدر ثقافى آخر بعد ما ذكر ، فلا فلسفة ولا تاريخ ولا سياسة ولا أدب أجنبى ولا دراسات إنسانية واجتماعية ولا اقتصاد .

وننتقل إلى تفتح موهبته الشعرية وإبداعه حيث نجد موقفا معاديا من الأسرة انتهى بالقطيعة ، فى حين يبدى الأصدقاء تشجيعا وتأييدا عندما كان يسمعهم تحت النخلة محاولاته الساذجة ، ولما احتدم الموقف مع والده شجعه اسماعيل بقوله : « السمع والطاعة

للموهبة » صـ ٢٧ و يؤكد الراوى إعجابهم به لأنه عرف هدفه وحدد مرتمه ، فلم يشك أحدهم شاعريته « إنه يحب الشعر و يتذوقه و بدأ يبدعه ، ويحب الزجل أيضا » صـ ٣٢ و يفرحون معه بكل خطوة له على طريق النجاح والشهرة الأدبية ، فكانت مفاجأة سعيدة لهم حين نشرت أولى قصائده بمجلة الفكر « واهتز ركن قشتمر سرورا وطربا ، وقال حمادة : نحن نشهد ميلاد شاعر » صـ ٣٨

ولما وقعت المعركة الفاصلة مع والديه بعد رسوبه واتخذ قراره بالاتجاه نهائيا للأدب والشعر ، قال إسماعيل « إننى أؤيدك » وقال حمادة : أحيانا يثبت الآباء أنهم فى حاجة إلى تربية جديدة »

و بفضل الإصرار وتشجيع الأصدقاء وترحيب الوسط الأدبى حقق طاهر نجاحا تلو نجاح ، ثم جمع قصائده فى أول ديوان بعنوان « زائرات الحديقة » صـ ٩٦ و يزهو الأصدقاء بطاهر ونجاحه « ومن بين أفراد مجموعتنا الفانية يبزغ طاهر كالقمر فى تألقه و ينطلق فى طريق النجاح كالشهاب » صـ ١١٠

لكن التشجيع والتأييد من رفاقه قد تحول إلى سخط ونقد عندما ظهر إعجاب طاهر للثورة وزعيمها ، إن صادق ــ التاجر الثرى ــ يرى فى مكانته الأدبية وسيلة للنفوذ يلجأ إليها حين تتهدد ثروته فيقول : « ألا تستطيع بمنزلتك الغالية عندهم أن تدفع عنا البلاء إذا حم قضاؤه » ؟ و بدلا من أن يفهمه معنى العدالة الاجتماعية وتقارب الطبقات يضحك عاليا و يقول « لا يدفع ذلك شعر ولا نثر » وحماده ــ سيء السلوك المتبذل ــ يقول بأسى : من المحزن وغير المفهوم أنك تخلص فيما تقول وتكتب ، على حين ينزل إسماعيل ــ الوفدى الذى تطلع لمنصب ضاع منه بعد حل الأحزاب ــ ينزل إلى أقل درجة فى الفهم والتعبير حين يقول بمرارة « شعر جيل ومضمون زبالة » صـ ١١٠

ويمضى الشاعر فى طريق النجاح والشهرة فيدعى إلى تحرير مجلة الثورة رغم أنه ليس من المنافقين ولا أهل الثقة ، « لكن بعده عن الأحزاب سابقا ، وشعره الشعبى القديم ذكياه » صـ ١١٠ وقد أقبل على تأييد الثورة فى كل موقف والتغنى بكل إنجاز ونصر ، فتردد أجهزة الإعلام مايبدعه من شعر وأغانى ، ثم كانت النكسة فأبدع شعرا يقطر يأسا ومرارة وتشاؤما لكنه ينشر شيئا قد يسيء إلى البطل الجريح . وتوفى الزعيم ، فانقلبت الأحوال : عزل طاهر من رئاسة التحرير ولم تعد الأجهزة تنشر أشعاره « واقتصر نشاطه فى تلك الفترة على نشر بعض القصائد فى المجلات العربية التى تصدر فى الخارج » صـ ١٣١ ثم بدأت مرحلة السقوط فى الهاوية .

بقى تعليق أخير على شخصية طاهر: فحين أكد المؤلف أكثر من مرة على انعدام الوازع الدينى عند طاهر أتبع ذلك بقوله : « وكان ضميره عامرا بالقيم الرفيعة » صـ ٣٢ ولم تبرهن

الأحداث على ذلك قط ، هو حقيقة لم ينحرف أخلاقيا ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة للشخص العادى ، لكن شاعرنا تنكر لزوجته الأولى بعد عشرة طويلة ورغم اختياره لها عن حب ورغم مطالبة ابنته له بالوفاء ، وهو قيمة رفيعة .

ثم إنه بعد أن كان شاعرا جادا ملتزما تحول للعكس فسقط فى هاوية الفن السهل ، بدأ الأمر حين تزوج للمرة الثانية وناقشته زوجته فى الهجرة فرفضها قائلا إن الفرص متاحة له فى الداخل لأن مسارح القطاع الخاص تطلب منه أغانى واستعراضات ، فاعتبرت ذلك هبوطا واستهانة بسمعته ، ورفض أصدقاؤه الهجرة لكبر سنه ، ولم يعتبروا تلبية طلبات القطاع الخاص هبوطا وإنما بوسعة أن يرتفع بمستوى ذلك القطاع ، ونسى المؤلف الكبير أن القطاع الخاص يهدف للربح عن طريق إشباع الغرائز وإرضاء الجهل وتكريس الانحدار بدليل ما قاله بعد ذلك « و بذل أقصى ما يملك من مهارة لتجنب الهبوط ، ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت فى عينى أنوار وازدادت أرباحه ، ولكن لاحت فى عينيه نظرة شاردة » صـ ١٣٦ وقد حاول المؤلف الاعتذار عن سقوطه « والواقع أنه استجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ضغط ظروف المعيشة وارتفاع الأسعار ومسئوليته فى الإنفاق على بيتين »

ومرة أخرى على لسان صادق « وهل من الإجرام أن يدفع إنسان عن نفسه غائلة الجوع والفقر» صـ ١٣٧ ؟ ولكنه بالطبع لم يكن يدفع الجوع والفقر وإنما يسعى للثراء بدليل قوله فى نفس الصفحة « أصبحت من أغنياء الانفتاح » واندفع فى طريق الفن السهل بعيدا عن أنوار التى عذبته فترة كأنها ضميره الغائب » صـ ١٣٧ فمثاليته إذن كانت غير حقيقية لأنها فشلت فى أول اختبار لها .

وفى مجال القيم الرفيعة أيضا ومدى إيمانه بها ومراعاته لها يمكن أن ندرج موقفه السياسى ، فهو فى البداية رفض كل الأحزاب وجميع الانتماءات بما فيها الإعجاب والتأييد لسعد زغلول أو الملك ، فكان المنطقى أن يتجه للفكر التقدمى وأن ينادى بالتغيير والثورة ، لكننا لا نرى أية اشارة إلى ذلك .

فلم يذكر المؤلف مثلا أنه يكتب قصيدة عن الظلم أو المساواة أو الحالة البائسة للشعب قبل الثورة ولا عن الإنجليز والاحتلال والدعوة للحرية والاستقلال بل حتى عندما تعرف على الفكر التقدمى لدى الزملاء فى المجلة لم يتجاوز حد الإعجاب والتعاطف دون الالتزام .

أترى يرجع هذا الموقف المتميع الضعيف إلى اتقاء المؤلف لاتهام قد يوجه إليه حول إيمانه بمبدأ معين ؟ فيقدم لنا بطله مترددا خائفا مهزوزا . ولماذا ننس موقفه من أسرته وتناقضه تماما مع القيم الرفيعة ، لقد اختلف مع والديه حول عمله وزواجه وغادر البيت ــ حسنا ــ ولكن ألا

يدفعه ضميره العامر بالقيم إلى المحاولة مرة ثانية واثنين وعشرة لكى يسترضيها أو حتى يبرهما و يسأل عنها وهو بعيد ؟

إن شيئا من ذلك لم يحدث ، وحتى حين عرض عليه صديق أن يزورهما ومعه طفلته فالطفولة لها سحرها وتأثيرها القوى ، وخاصة على الأجداد ، لكنه رفض العرض لخشيته ألا تقابل ابنته بما يليق بها من حفاوة ، وأكد تعنت والده الذى لا يعرفه الآخرون . ورغم كل ما قال فقد فاجأنا المؤلف بالترحيب الحار والفرحة الغامرة لدى الأم والأب حين زارهما بعد مرض والده ، وطالباه بإحضار أسرته و بعد وفاة الأب السريعة طلبت منه الأم الإقامة معها بالفيللا . هو إذن لم يكن يعرف أباه كما ادعى ، ثم ألا تتعارض مقاطعته لوالديه تلك السنين مع القيم الرفيعة ؟

بقيت الأخطاء اللغوية والتعبيرية ، وهى من الكثرة والتنوع بحيث يصعب الاعتذار عنها ، وأنا لن أتعرض لما يمكن تأويله بأنه مطبعى مثل كتابة ذكى بالزاى ، وكلمة فيللا مرة بلام واحدة ومرة بلامين فى سطور متتالية ، وإنما أشير لما هو ناتج عن السرعة وعدم المراجعة .

وأخطاء الأستاذ نجيب تنقسم إلى الأنواع التالية :

١ ـ استعمال كلمات عامية دراجة لا تتفق مع لغة القصة الفصحى ، ولا تعبر عما أراد الكاتب من معنى ، ومن ذلك :

١ ـ تسجلت أصواتنا صـ ٥ : أراد سجلت أو بقيت وثبتت .

٢ ـ أنا تعبان لأننى وحيد والديه صـ ١١ : يقصد متعب أو تعب ، والهاء خطأ أيضا لأن المتكلم يقول والدى

٣ ـ وهناك اختلطت الهتافات بصوات المطلات من النوافذ صـ ٤٤ : ليس فى اللغة صوات ، وإنما صوت وأصوات والكاتب أراد صراخ أو عويل

٤ ـ استعمال كلمات ماما ، مامته ، مامتك ، مامتها ، طوال القصة رغم أنه يستخدم كلمة أبى ، أباه ، أبيك ، والكلمة عامية تستعمل فى بيئات محدودة وليست منتشرة فلماذا لا يقول أمى ، أمه ، أمك ؟

٥ ـ حتى السطول بات سوداويا صـ ١١٧ : كان وحده فى غاية السطل صـ ١٣٠ : إن السطل فى اللغة هو طاسة وجمعها سطول ، وقد أراد المؤلف أن يقول النشوة أو غيبوبة الخدر .

٢ ـ كلمات فصيحة ولكنها لا تناسب المعنى المراد مثل :

١ ـ ورمضان والاعياد لا تكون شهورا دينية صـ ١٢ : الصحيح مواسم لأن الأعياد أيام وليست شهورا .

٢ــ نـنـشـأ نـشـأة وثـنـية أو لا دينية مجردة صـ١٣ : وثنى أى يعبد الأوثان أو الاصنام ولم يكن طـاهـر كـذلـك ، لا ديـنـى أى لا يـنـتسب أو ينتمى لعقيدة معينة وأظنه سجل فى الأوراق الـرسـمـيـة وعـرف فى مجتمعه بأنه مسلم ، أراد المؤلف : ضعيف الوازع الدينى ولا يمارس العبادات والفروض .

٣ــ غير أنه السينما احتلت صـ١٣ : غير أن فقط

٤ــ فى تـفجير موهبته الشعبية صـ٢٥ : الأدق تعبيرا أن يقول : الروح الشعبية أو الميل والانتماء لطبقات الشعب ، فلا توجد موهبه شعبية

٥ــ وتـبين لـى أنهـا فـتاة عاملة ، فهى إما تمارس عملا أو ترجع إلى بيتها صـ٣٩ : هناك فتاة عاملة أيضا ولكنها سيئة السلوك ، لقد أراد فتاة جادة ملتزمه بالخلق القويم .

٦ــ أتم مندوب رأفت باشا مهمته فى تدر به صـ٥١ : الصحيح تدر يبه لأن المندوب لم يتدرب ولكن درب صادقا

٧ــ وسقط طاهر سقوطا شاملا صـ٥٣ : الصحيح رسب رسوبا كاملا أو فشل فشلا تاما .

٨ــ وجلس أمام عبيد باشا وأنصاف هانم فى قفص الاتهام متهما صـ٥٣ : طبيعى أنه فى قفص الاتهام يكون متهما

٣ــ أخطاء تتمثل فى ركاكة التعبير:

١ــ وهـو مـع ذلـك مـع الـثورة صـ١٨ : تكرار مع ، من الممكن قوله : يؤ يد الثورة أو يتحمس لها .

٢ــ سـألـتحق قر يبا جدا بالمجلة كشاعر ومترجم صـ٥٤ : ولماذا الكاف ؟ .. شاعرا ومترجما ، ومثلها قوله : عرفنا سعد كمثال ، يثنى على رئيفة كر بة بيت

٣ــ تـستحوذ الأسرار العائلية علينا أحيانا بأشد ماتـستحوذ المذابح صـ٦٧ الصحيح : تستحوذ الأسرار العائلية علينا أشد مما تستحوذ المذابح ، أو أكثر من استحواذ .

٤ــ وشـاركـهـا قلقها من قلب بات يقدرها أكثر من الأول صـ٩٢ أكثر مما سبق ، أو أكثر من الماضى .

٥ــ يـود أن يـعـتبر نـفـسه شخصية عامة بما هو تاجر معروف صـ٩٦ : لأنه تاجر أو لكونه تاجرا معروفا .

٦ــ فى سطور ثلاثة متتالية تكررت كلمة الفيللا ثلاث مرات دون ضرورة صـ١٠٤ ولبثوا فى

الفيللا حتى تناولوا الغداء ، ودعتهم الهانم للاقامة معها فى الفيللا ولم يترك الباشا من العقار إلا الفيللا .

٧ــ ثم سرعان مايترجم إلى غناء صـ ١١٠ : هل يترجم الى غناء أم يتحول أو يلحن أو يصبح ؟

٤ ــ أخطاء تعبيريه :

١ ــ كم ضاعت من أرواح فداء للعجوز الأنانى صـ ٣٠ :
لقد ضاعت الأرواح فداء للعدالة والحرية وكان سعد زغلول رمزا يجسد تلك القيم

٢ ــ ولكن التعاطف لم يتجاوز به حدود الصداقة للمبدأ ومعتنقيه دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج فى سلوكياته صـ٣٨ : ولماذا هذه المعاظلة وتكرار مبادىء ومبدأ لقد أراد أنه أعجب نظريا بالمبادىء التقدمية والأفكار الجديدة ، ولكنه لم يحول الإعجاب إلى سلوك عملى ، لم يقتنع حقيقة .

٣ــ لقد صرح المؤلف فى أول القصة بأنه الراوى فقط فالمفروض ألا يتحدث عن نفسه أو ينضم إليهم فيتحدث بضمير المتكلمين ، وهو ما كان يقع كثيرا :
يقول صـ٥٣ : والحق أننا فى الثقافة لم نكن نفرق بين وفدى ودستورى ولا نتأثر بعواطفنا السياسية فى تقدير من يستحق التقدير من خصومنا .
وفى الفقرة التالية مباشرة يقول : وبقدر ماتحظى به حياتهم الثقافية الحرة من ازدهار وتقدم وجرأة ، فإن دراستهم الجماعية تعثرت فى الفتور المنذر بالفشل .

٤ ــ إنها ثورة ذات أهداف جليلة ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطاع الطرق صـ ١٠٩
كيف يستقيم الأمران : ثورة جليلة الهدف يقوم بها قطاع طرق ؟ أهم صعاليك العصر الحديث ؟

٥ــ شعر جيل ومضمون زباله صـ ١١٠

وبغض النظر عن رداءة كلمة زبال فمن الغريب حقا أن يصدر هذا التعبير من أديب كبير ــ وان يكن على لسان أحد الأبطال ــ فالبطل الذى نطق به محام درس الحقوق ، وهو مطلع منذ صغره ومثقف ، فهل يمكن أن يبدع شاعر ــ أى شاعر ــ شعرا متناقضا ، جميلاً فى الشكل وسيئاً فى المضمون ؟ المفروض أن العمل الفنى متكامل يؤثر شكله فى مضمونه والعكس ، فإذا كان ردىء المضمون ــ أو غير مقنع ــ فسيكون مفتعلا يفقد الروح والحس وبالتالى غير جميل ، أما فى حالة « طاهر» فإن عدم اقتناع أصدقائه بالثورة وكراهيتهم لها ، لايعنى بالضرورة أن شعره فيها

سيء أو « زبالة » لأنه هو نفسه يرى فى هذا المضمون جمالا واقناعا ولذلك نجح فى التعبير عنه بشعر جميل .

٦ ــ صـ ١١٠ من الحزن وغير المفهوم أنك مخلص فيا تقول وتكتب « كان هذا تعقيبا من أحد الأصدقاء على شعر طاهر» فى الثورة ، ومن الغريب أن يرى أصدقاؤه إخلاصه للثورة محزنا وغير مفهوم بعد كل ما قيل عن فرحه بالثورة وحماسه لإنجازاتها ، وحبه للزعيم ، ثم كيف يبدع شعرا جيلا كما وصفه المؤلف إذا لم يكن مخلصا للفكرة التى عبر عنها ؟ كان يمكن أن يقول الصديق إنى اختلفت معك ولا اقتنع بإخلاصك مثلا .

٧ ــ تأثر فى بعضه تأثرا واضحا بفن العبث صـ ١٢٠ : هل هو فن العبث أم مذهب العبث

٨ ــ شلتنا تستحق أن يخصص لها فصل فى كتب الجنس صـ ١٣٣ : كان الحديث يدور حول تجارب الحب فلماذا لا يقول فى كتب الحب .

٩ ــ يعقب طاهر على ولادة زوجته الثانية لطفلة ميته فيقول « ليس هذا فحسب ، ولكنها اقتنعت أخيرا بأنها لن تكون شاعرة وكفت عن المحاولة صـ ١٣٦
هل يرى الكاتب الكبير من خلال الشاعر المثقف أن الولادة المتعسرة والطفلة الميته نوع من الفشل يدعو للتشفى ، فيقول هذا فحسب ؟ و يضيف إليه الفشل فى الشعر؟

١٠ ـ حفيدته الجديدة نبيلة صـ ١٣٧ لم تكن له حفيدة سابقة ليقول الجديدة .

١١ ـ تعقيبا على احساس طاهر بالذنب لاستجابته للقطاع الخاص ، يقول له صديق سيبقى شعرك القديم شامخا و يغفر لك ما تأخر « صـ ١٣٧ : الأصل أن يتطور الإنسان للأحسن وأن يغفر حاضره ماضيه وليس العكس . » أن الحسنات يذهبن السيئات

٥ ــ استخدام حرف الجر غير المناسب

١ ــ حافظ على حسن العلاقة مع أخيك تفاديا من وجع الدماغ صـ ٦٣ :
الأصح استخدام اللام : لوجع الدماغ .

٢ ــ لم يتردد طاهر عن أن يقول صـ ٨٤ : فى أن يقول

٣ ــ تعلق قلبه بحرارة بالصداقة صـ ٩٢ : ولماذا تكرار الباء وفى اللغة متسع ؟ فى حراره .

٤ ــ وتعرفت إلينا صـ ١٣٢ : الصحيح علينا

٥ ــ وكان قد أحيل على المعاش صـ ١٣٧ الصحيح : إلى المعاش وكذلك استخدام العطف والاستدراك دون مناسبة مثل : ولم يترك الباشا من العقار إلا الفيلا وكمية محترمة من

الأسـهـم والسندات وقليلا من المال السائل صـ ١٠٤ ان الأسهم والسندات ليست عقارا كى تعطف على الفيلا . وهناك أمثلة كثيرة لذلك .

٦ــ كـان الحـديـث يـدور عـن الـديـن وأن طـاهرا بلا دين وكذلك شقيقتاه تماثلانه فى ذلك « ولكنه يقول عنها : لهما صديقات كالأقمار يزرنهما ويجلسن معهما فى الحديقة صـ ١٣ : إن مابعد لكن مستدرك على ماقبلها ، فالمفروض أن يكون بينهما تناسبا وصلة ، غير أن المؤلف لايـراعـى ذلـك فى مـرات كـثيرة كما أنه قد يبدأ الفقرة بـ « أما » دون أن يكون مابعدها تفصيلا لما قبلها .

٦ــ أخطاء إعرابية أو نحويه مثل :

« وعرفنا سعد كمثال صـ ١٩ : عرفنا سعدا

« إن شوقى أمير من البيت المالك صـ ٣٨ : إن شوقيا ، فهى ليست ممنوعة من الصرف .

وبعد ....

إن مـاحـفـزنـى لهذه الملاحظات حول القصة هو إعجابى القديم والشديد بالروائى الكبير ، لذلك أتمنى أن لاتشوب عمله أية شائبة ، وأرجو أن تؤخذ ملاحظاتى من منطلق الحب والتقدير .

قائمة الأبحاث
التي صدرت في الأجزاء السابقة
من سلسلة « دراسات عربية وإسلامية »

الجزء الأول

- قراءة فى الترجمة العبرية لمعانى القرآن الكريم — د . عبد الرحمن عوف
- من قضايا المنهج فى علم الكلام — د . حسن الشافعى
- المضاربة بمال الوديعة أو القرض فى الفقه الإسلامى — د . أحمد يوسف
- مفهوم السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية — أ . د . مصطفى حلمى
- التجربة الأخلاقية عند ابن حزم — د . حامد طاهر
- دراسة الواقع اللغوى أساسى لحل مشكلات اللغة العربية فى التعليم — أ . د . السعيد بدوى
- فاعلية المعنى النحوى فى بناء الشعر — د . محمد حماسة عبد اللطيف
- الواقعية ما هى ؟ دراسة تطبيقية لقصص المدرسة الحديثة — أ . د . حمدى السكوت
- قضية التأثير العربى على شعراء التروبادور — د . أحمد درويش

الجزء الثانى

- مفهوم التطور فى الفكر العربى — د . محفوظ عزام
- تحليل ظاهرة الحسد عند المحاسبى — د . حامد طاهر
- التأمين في الفكر الفقهى المعاصر — أ . د . محمد بلتاجي
- تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها — د . أحمد طاهر حسنين
- تعدد أوجه الاعراب في الجملة القرآنية — د . محمد حماسة عبد اللطيف
- تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربى — ر . بلاشير – ترجمة د . أحمد درويش
- المرايا الشعرية لدىٰ نازك الملائكة — أ . د . محمد فتوح أحمد
- موقف نقاد الرومانسية من شعر شوقى — أ . د . طه وادى
- قضية ترجمة الشعر — أ . د . رجاء جبر

الجزء الثالث

- تأثير الفقه الإسلامي في القانون الانجليزي — أ . د . محمد عبد الهادي سراج
- ابن باجه وفلسفة الاغتراب — أ . د . محمد إبراهيم الفيومي
- ظاهرة البخل عند الجاحظ — د . حامد طاهر
- العناصر الفكرية والفنية في رسالة الغفران — د . جابر قميحه
- قضية زواج المرأة في الخليج من خلال الشعر الحديث — د . نورية الرومي
- النقد الجديد وفلسفة العصر — أ . د . عبد الحميد إبراهيم

الجزء الرابع

- القراءات القرآنية : رؤية لغوية معاصرة — أ . د . أحمد مختار عمر
- تجديد الفكر الإسلامي عند محمد إقبال — د . عبد المقصود عبد الغني
- انتشار الإسلام في الهند — د . محمد عبد الحميد رفاعي
- بناء مصر الحديث : محاضرة مجهولة لطه حسين — ترجمة د . حامد طاهر
- احتكاك العرب بالسريان وآثاره اللغوية — د . علاء القنصل
- اللغة العربية ودور القواعد في تعليمها — أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
- أثر المبرد في النحو العبري — د . سلوى ناظم
- نظرية النظم عند عبد القاهر — د . أحمد درويش

الجزء الخامس

- عقوبة السجن في الشريعة الإسلامية — أ . د . محمد عبد الهادي سراج
- الوثائق الإسلامية — د . عبد التواب شرف الدين
- حركة التأليف في العالم العربي المعاصر — د . حامد طاهر
- حركة الروي في القصيدة العربية — أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
- الأصوات وأثرها في المعجم العربي — د . رفعت الفرنواني
- الثروة اللغوية العربية — انطون شال – ترجمة د . سعيد بحيري
- نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب — أ . د . أحمد طاهر حسنين
- منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية — أ . د . يوسف نوفل
- قراءة القصة القصيرة — د . حسن البنداري

الجزء السادس

● صراع مع الطبيعة أو صراع مع الفن	أ . د . محمود الربيعى
● العنصر المهمل فى حركة التجديد الشعرى	أ . د . عبد الحكيم حسان
● استدعاء الشخصيات التراثية الهندية فى منظومة جاويد نامه	أ . د . محمد السعيد جمال الدين
● التحليل النصى للقصيدة : نموذج من الشعر القديم	أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
● الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث	أ . د . حامد طاهر
● الوظائف اللغوية للزوائد فى النحو العربى	د . محمد صلاح الدين بكر
● قضية تأويل القرآن بين الغزالى ومعاصريه	د . محمود سلامة
● حديث عيسى بن هشام	د . عصام بهى
● العلمانية والمنظور الإيمانى	د . عبد الرزاق قسوم
● تكوين النص الشعرى عند حازم القرطاجنى	د . حسن البندارى

الجزء السابع

● اعداد الداعية المفتى	أ . د . حسن الشافعى
● المنهج الإسلامى فى التنمية	أ . د . يوسف إبراهيم
● احياء الفلسفة الإسلامية بين مصطفى عبد الرازق ومحمد اقبال	أ . د . حامد طاهر
● العلاقات الإسلامية البيزنطية	أ . د . علية الجنزورى
● حركات التجديد الدينية ودورها فى نشر الحضارة الإسلامية فى غرب افريقيا	أ . د . عبد الله عبد الرازق
● الإنتاج الفكرى وحق المؤلف	أ . د . شعبان خليفة
● محاولات التيسير فى النحو العربى (القسم الأول)	أ . د . صلاح رواى
● الثنائية فى الفكر البلاغى	أ . د . محمد عبد المطلب
● نظرية الأخذ الفنى عند حازم القرطاجنى	د . حسن البندارى

الجـــزء الثامن

العنوان	المؤلف
• نحو استكمال علامات الرسم الإملائي فى القرآن الكريم	أ. د. محمد حميد الله ترجمة : د. محي الدين بلتاجي
• أضواء جديدة على تفسير سورة يوسف من خلال اللغة العصرية القديمة	أ. د. رمضان السيد
• رؤية الجبرتي للحركة السلفية فى مصر وشبه الجزيرة العربية	د. نازك زكى
• الترجمة ودورها فى الفكر العربي.	أ. د. حامد طاهر
• المنهج فى كتاب سيبويه	أ.د. صلاح الدين بكر
• محاولات التيسير فى النحو العربي (القسم الأخير)	أ. د. صلاح رواى
• المصطلح ودلالته فى الدرس الصوتي عند العرب (القسم الأول)	د. رفعت الفرنواني
• التراث والأصول الأوربية للحداثة	أ. د. عبد الحكيم حسان
• الناقد المتخصص وتوثيق الشعر عند ابن سلام.	د. حسن البنداري

الجـــزء التاســع

العنوان	المؤلف
• تفوق ابن قتيبة للنظم القرآني	أ. د. منير سلطان
• نحن وقضية التراث الفلسفي العربي	أ. د. عاطف العراقي
• خمس مشكلات حقيقية أمام • الفلسفة الإسلامية فى العصر الحاضر	أ. د. حامد طاهر
• المصطلح ودلالته فى الدرس الصوتي عند العرب (القسم الأول).	د. رفعت الفرنواني
• محاولات تيسير النحو العربي	أ. د. صبرى إبراهيم السيد
• نحو أدب إسلامي مقارن	أ. د. الطاهر أحمد مكى
• عبد الله الطائي وآفاق الشعر المعاصر	أ. د. أحمد درويش
• عمود الشعر دراسة فى المصطلح النقدى	أ. د. توفيق الفيل

رقم الايداع

١٩٩٠/٥٤٩٥